الوسطية العربية

الكتاب الثامن

يقول الراوي

تأليف
الدكتور/ عبدالحميد إبراهيم

من عجائب الطيور

أخذ لقمان يقلب صفحات " كتاب العبر في أحكام القضاء والقدر" حتى وصل إلى " باب كشف المستور من عجائب الطيور" فبدأ يقرأ وابنه يصغي:

" كان ياما كان ن في سالف العصر والأوان ، رجلان أحدهما خير والآخر شرير ، وكانا متلازمين لا يفارق أحدهما الآخر ، فحيثما يوجد الخير يوجد معه الشرير.

ضاق الصاحبان ببلدهما ، فعزما على أن يسوحا في أرض الله ، حتى إذا ما بلغا مغرب الشمس وجداها تغرب على خلق كثير مثل يأجوج ومأجوج ، وكان هذا الخلق يعيشون على الفطرة ، لا يعرفون الحضارة ولا الصناعة ، ولا يجيدون بناء السدود ولا الجسور ، وكانوا مفسدين في الأرض لا يراعون دينا ، ولا يقيمون خلقا.

وصل الصاحبان إلى هذه الأرض ، وكانت هناك مناسبة لتنصيب الملك الجديد ، وكان من عادة هؤلاء القوم إذا مات منهم ملك ، أن يطلقوا طائرا غريب الشكل ، ضخم الجثة ، ذا منقار أسود وأعين منقورة . فإذا ما حط هذا الطائر على شخص ما ، فإنهم ينصبونه عليهم ملكا حتى يموت.

حام هذا الطائر سبع مرات ، وكان مثل طائر الرخ يضرب بجناحيه ، ويحجب أشعة الشمس ، ويحيل الساحة إلى ظلام دامس.

وأخيرا حط هذا الطائر على الرجل الشرير ، فهتف الخلق الكثير بالدعاء للملك الجديد ، وحملوه على الأكتاف.

" قرأت في صحف اليوم أن ملكا ظالما أجرى انتخابات بين رعيته ، فانتخبوه بنسبة٩٩،٩% ، فازداد هذا الملك عتوا ، وازدادت رعيته خنوعا"

نظر لقمان إلى السماء فوجد طيورا كثيرة تحوم ، وكانت منقورة العيون ، تحجب أشعة الشمس ، ففزع لقمان ، وأخذ يتلو ما تيسر من سورة "يس" ، ورفع يديه يجهر بالدعاء:

- اللهم إنا نسألك أن تولي علينا من يصلح.

قال له ابنه بلهجة أكثر واقعية :

- بل قل : اللهم إنا نسألك أن تصلح من وليت علينا .

عنتر وغضنفر

يقول الراوي الأول:

" تسابق عنتر وغضنفر في ركوب الخيل فلم يسبق أحدهما الآخر .وتسابقا في المبارزة بالسيف ، فلم يفز أحدهما على الآخر . وتسابقا في قول الشعر فتساويا.

وأخيرا اقترح حكيم القرية رأيا يتلخص في أن يضع عنتر إصبعه في فم غضنفر ، وأن يضع غضنفر إصبعه في فم عنتر ، وأن يعض كل منهما على إصبع الآخر .

أخذ كل منهما يعض على إصبع الآخر بأقصى قوة يستطيعها ، حتى قال غضنفر "آي" فخسر الرهان .

قال عنتر لغضنفر بعد أن انتهى السباق : لو انتظرت لحظة واحدة، لقلت أنا "آي" وكنت أنت الفائز"

****

قال الراوي الثاني يخاطب الراوي الأول:

- لقد قلت أنت ما سمعته ، أما أنا فقد تبعتهما بعد المسابقة ، واليك بقية الحكاية.

ذهب عنتر إلى منزله ، مزهوا بانتصاره ، يركب حصانه ، وينشد أشعاره ، فاستقبلته زوجه مرحبة ، وابتسمت له ، وسهرت معه حتى الصباح.

أما غضنفر ، فقد ذهب إلى بيته منكسرا يجر أذيال الخيبة ، فكشرت زوجه في وجهه ، وأعطته ظهرها حتى الصباح.

صفق الجمهور لكلا الراويين دون أن يفضل أحدهما على الآخر . ولكن خبيثا قال لهما : لقد تسابقتما في القول والإنشاد فأيكما عنتر وأيكما غضنفر.

لم يفهم الراويان شيئا ، فهما لا يجيدان ركوب الخيل ولا المبارزة بالسيف ، ولا قول الشعر . فقط عليهما أن يرويا وأن يقولا وعلى الجمهور أن يعطي وأن يصفق.

خرج الراويان وقد اشتبكت يداهما ، يبتغيان رزقهما في حفلة أخرى قبل انبلاج الصباح.

الفرخة بفرختين

حمل العسكري الفرخة المشوية إلى مأمور المركز من المطعم المجاور . كانت الفرخة محمرة وسمينة وذات رائحة نفاذة ، التهمها المأمور دون أن يترك منها شيئا ، سوى عظام معروقة لا تصلح حتى للكلاب أو للقطط.

تجشأ المأمور ، وطلب الشاي ذا النعناع لكي (يحبس) الفرخة في بطنه ، مد رجليه حتى نهايتهما ، كان المكتب وثيرا ومكيفا ، وخلفه صورة الرئيس علقت على الحائط فوق رأسه .

أحس العسكري بالجوع ، فهو واقف منذ الصباح أمام مكتب المأمور، يرد على السائلين بالأجوبة التي لقنها له المأمور فمرة يقول : المأمور عند المحافظ ، وثانية يقول : المأمور في مكتب الوزير ، وثالثة يقول : المأمور يمر على العمد والمشايخ ، ورابعة يقول : المأمور يصلي.

ازداد الجوع على العسكري ، فهو واقف منذ الصباح في جو حار ، والمأمور لم يترك له شيئا من الفرخة ، وأخيرا تفتق ذهنه عن حيلة سرعان ما نفذها .

ذهب إلى المطعم المجاور ، وطلب فرختين محمرتين للبيه المأمور ، وانتحى ركنا قصيا في المركز ، والتهم الفرختين دون ن يترك منهما شيئا ، ودفن العظام الخالية في التراب ، حتى لا يراها أحد.، تجشأ العسكري ، وربت على بطنه ، وقال باختصار:" الفرخة بفرختين والبادي أظلم ".

ولكن من يعلق الجرس

كان هناك أسد ظالم يحكم وادي الأرانب ، يفرض عليه كل يوم وجبة دسمة من الأرانب.

اجتمعت الأرانب ذات يوم ، يتشاورون في التخلص من ظلم هذا الأسد ، هم لا يستطيعون أن يقتلوه ولا أن يحفروا له حفرة ليقع فيها ، وأخيرا اقترح أحدهم أن يعلقوا جرسا في رقبة الأسد ، فإذا ما تحرك الأسد دق الجرس ، واختبأت الأرانب في جحورها ، فلا يستطيع أن يصل إليهم . بدا هذا الاقتراح لأول مرة وجيها ، ولكن أرنبا سأل : ولكن من يعلق الجرس في رقبة الأسد ؟ من هذا المغامر الذي يضحي بنفسه ليقترب من الأسد . وجمت الأرانب وأصابها الإحباط .

أغلق الأستاذ كتاب المطالعة ، الذي قرأ فيه قصة هذا الأسد الظالم ، وهم بالانصراف ، ولكن تلميذا صغيرا ، تبدو عليه مخايل الذكاء ، رفع إصبعه وقال :

يا أستاذ إن هذه النهاية لا تعجبني في نهاية يائسة محبطة.

قال الأستاذ :

- أكلف كل واحد منكم بأن يقترح نهاية مناسبة لهذه الحكاية ، وغدا أفحص النهايات ، وأختار أفضلها .

قرأ الأستاذ في الغد كل ما كتبه التلاميذ من نهايات ، واختار أفضلها ، وكانت هي ما اقترحه ذلك التلميذ النابه ن وقرأها :

" كان هناك أرنب ذكي ، قال لبقية الأرانب أنا سأعلق الجرس ، خافت عليه الأرانب من تهوره ، ولكن أعطوه الفرصة ، وانتظروا .

كان هذا الأرنب الذكي يعرف ، أن بجوارهم واديا يسمى وادي السباع ، يحكمه أسد قوي مشهور بأنه ملك الغابة .

ذهب إليه الأرنب الذكي ، وقدم له وجبة شهية من الضفادع ، أكلها الأسد وأعجب بها وطلب المزيد.

قال له الأرنب الذكي :

- أستطيع أن أقدم لك وجبة شهية كل يوم .
- افعل ولا تتأخر.
- ولكن أرجوك أن تأمر الأسد الذي يحكم وادي الأرانب بأن يسمح لي بأن أعلق جرسا في رقبته ، فإذا ما دق الجرس أتت الضفادع ، فاختار لك أشهاها وأحلاها.
- اذهب إلى ذلك الأسد ، وقل له : إن سيدك يأمرك بأن تسمح لي بأن أعلق هذا الجرس في رقبتك .

لما سمع الأسد الذي يسكن وادي الأرانب هذا الكلام ، برك على رجليه وقال له : - تفضل .

علق الأرنب الذكي الجرس في رقبة الأسد واطمأنت الأرانب"

مسح الأستاذ الفصل بنظرة ، وقال : - قد يعرف الصغار مالا يعرفه الكبار ، وقد يتوصل تلميذ صغير إلى مالا يستطيع أن يتوصل إليه مؤلف كبير.

الـهتهات مات مات

أخذت الطيور تلف وتدور حول النسر المريض ، يتقدمها الهدهد ، وهو ينشد ومن ورائه الطيور تردد:جاءك الهتهات بما كسبت يداك ، ارتفعت الأصوات وتداخلت وكأنها طبول الحرب ، ترنح النسر واصفر وأصابه الهزال ، ثم سقط ميتا.

فرحت الطيور وصفقت ، وأعلنت الهدهد ملكا عليها ، وعم المملكة الفرح والسرور والأمن والسلام ، وعاش الناس في تبات ونبات.

تذكرت هذا المقطع الأخير من حكاية " النسر الظالم والهدهد الحكيم" كانت جدتي تروي لي هذه الحكاية في ليالي الشتاء الباردة ، واستعدت بقية الحكاية بصوتها الدافئ:

" كان فيه نسر ظالم ، يهاجم الطيور في أعشاشها الآمنة ، ويلتهمها بضراوة .

وفي يوم اجتمعت الطيور لتتشاور حول مصيرها ، يقول أحدهم : نقتل النسر ، ويجيبه الآخرون بأنهم لا يستطيعون، ويقول أحدهم نشكوه إلى الأسد ، ويجيبه الآخرون بأن الأسد أشد ظلما منه .

كثرت الأسئلة والأجوبة ، والهدهد صامت لا يتكلم ، وأخيرا رفع رأسه وقال في ثقة : أنا سأخلصكم من هذا النسر الظالم.

استغربت بقية الطيور ، فالهدهد صغير وريشه ناعم ، لو نفخ فيه النسر لأماته ، ولكنهم اتفقوا على أن يعطوه الفرصة.

ذهب الهدهد إلى النسر ، وقال بصوت عال قبل أن يلتهمه النسر : أعطني الأمان وسأنقذك من موت محتم ، إن الطيور سوف ترسل لك طائرا كبيرا يسمى"الهتهات" ، سوف ينقض عليك بغتة ويقتلك ، وقال له النسر متى ؟ وأين سيأتيني؟ قال

الهدهد:لا أعرف ، قد يأتيك في الصباح أو في المساء ، وقد يأتيك من فوق أو من تحت ، وقد يأتيك من أمام أو من خلف ، فاحذره وكن متيقظا .

أصبح النسر لا ينام ، فهو ينتظر الهتهات في أي مكان ، وفي أية ساعة ، حتى اصفر ، وأصابه الهزال ، وأصبح لا يقوى على الحركة ، وفي يوم قال للهدهد بصوت ضعيف : متى سيأتيني الهتهات ؟ قال له الهدهد في سخرية ، وهل هناك هتهات أكبر مما أنت فيه؟

أخذت الطيور تلف وتدور حول النسر الضعيف ، يتقدمها الهدهد ، وهو ينشد ، وهي وراءه تردد : جاءك الهتهات بما كسبت يداك ، تعالت الأصوات وتداخلت كأنها طبول الحرب ، ترنح النسر واصفر حتى سقط ميتا .

فرحت الطيور وصفقت ، وأعلنت الهدهد الحكيم ملكا عليها ، وعم المملكة الفرح والأمان والسرور والأمن والسلام ، وعاشت في تبات ونبات"

كان لي صديق صغير في مثل عمري ، كنا نلعب سويا ، ولا يفارق أحدنا الآخر ، حتى اختطفه الموت فحزنت عليه حزنا شديدا ، ودخلت حجرتي وأقفلت علي الأبواب والنوافذ ، وصرت لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، حتى اصفر وجهي ، وأصابني الهزال.

وفي ليلة جاءتني جدتي ، ومسحت على وجهي ، وربتت على كتفي ، وقصت علي من جديد حكاية"النسر الظالم والهدهد الحكيم" ، ثم قالت بصوت خافت وحنون : جاءني صديقك بالأمس في المنام ، وأخبرني بأنه في الجنة ، وهو سعيد يلعب مع الملائكة الصغار ، وهو يرجوك أن تخرج من الحجرة ، وأن تلعب مع أخيه الصغير ، ومع بقية أطفال

الحارة ، وأن تعيشوا سعداء حتى تلحقوا به ، وتلعبوا سويا مع الملائكة الصغار.

قمت لتوي من سريري ، وفتحت الأبواب والنوافذ ، وتنفست الهواء الطلق وخرجت إلى الشارع ألعب مع جاري الصغير ، ومع بقية الأطفال ونحن ننشد فرحين:

الهتهات مات مات وفي ذيله سبع لفات

والعصفورة جات جات وفي ديلها عسل شربات

سمعت الجدة أناشيد الأطفال ، فاطمأنت على حفيدها وابتسمت.

الديك الذي باض

وقف المعلم في قاعة الدرس ، يشرح لتلميذه " حكاية الديك الذي باض" ويقول:

" كان ياما كان ، في سالف العصر والأوان ، ملك وما ملك إلا الله ، وكان هذا الملك جشعا طماعا ، يأخذ كل شئ لنفسه ،ويحرم كل من في المملكة من القوت والطعام .

فكر الملك مرة أن يشتري حظيرة من الدجاج وقال لنفسه : غدا يبيض الدجاج وتفقس الكتاكيت ، وتمتلئ المملكة بالبيض ، وأبيعه كما أشاء ، وتمتلئ خزينتي بالأموال ، وأصبح أغنى رجل في المملكة وصاحب الجاه والمال.

وذات يوم يكتشف الملك أن الدجاج لا يبيض ، فيشتد غضبه ويتملكه الغيظ ، ويذهب إلى الحظيرة ويلوح بعصاه أمام الدجاج ويقسم : لئن لم تبض كل واحدة منكن غدا خمس بيضات ، فسأذبحها بالسكين واشويها على النار ، وأجعلها طعما للقطط والفئران .

ويأتي الملك إلى الحظيرة في الصباح ، ويجد أن كل دجاجة قد باضت بالفعل خمس بيضات ، ما عدا واحدة قد باضت ثلاث بيضات ، فيقترب منها ويسألها ، فتقول له باكية : استر علي فأنا أصلي ديك".

رفع تلميذ يده وقال :

حكى لي أبي نهاية لهذه الحكاية ، أقصها عليكم :

" خرج الملك إلى شوارع المدينة ، يلوح بعصاه أمام الدجاج والكتاكيت ، ويأمر بأن تبيض كل واحدة خمس بيضات ، حتى امتلأت الشوارع بالبيض ، وأصبح الناس لا يستطيعون السير فوقها ، والملك معجب بجاهه وماله".

رفع طالب ثان يده وقال :

- ألم يكن في المدينة ديوك تنقر الملك ، وتخلص المدينة منه.
قال الطالب الأول :
- كل الديوك صارت تبيض ، وكل الديوك تعلمت أن تسير فوق البيض ولا تكسره.
كان هناك تلميذ في نهاية القاعة ، لا يشارك في الحديث ، كان هذا التلميذ يقول لنفسه:
- غدا سأشتري سكينا ، غدا سأذبح الملك غدا سأزيح البيض من الطرقات . غدا سأجعل الناس يمشون في الطرقات دون أن يتزحلقوا أو يقعوا....
ومن النافذة الشرقية ، تسللت أشعة الشمس الذهبية فملأت أركان القاعة بالنور ، واستدفأ بها التلاميذ ، وأحسوا بالبهجة والارتياح ، وهللوا لمقدم الصباح.

رباعية الحياة والموت

١. البيضة :

افترشت الفرخة الأرض ، فردت جناحيها كأنها تحتضن شيئا ثمينا ، كانت عيونها لامعة وريشها جميل ، أخذت تضغط على الأرض وهي تحزق.

وبعد فترة قامت من رقدتها مبتهجة ، وتمشت في الدار ، وهي تكاكي ، وخلفها الديك ، يصيح مزهوا بعرفه الأحمر.

نظر إلى الأرض ، فوجد بيضة ناعمة ، لمسها فأحس أنها ساخنة.

٢. الفرخة:

عادت الفرخة إلى البيضة ، ورقدت عليها ، وضمت جناحيها عليها ، أخذت تضغط عليها ، وكأنها تنقل إليها كل ما فيها من دم وحرارة . ظلت على هذه الحال مدة طويلة حتى اصفرت ، وغاطت عيناها.

وبعد فترة قامت من رقدتها ، وهي تجر نفسها في فناء الدار ، وخلفها الديك يصيح مزهوا بعرفه الأحمر.

نظر إلى البيضة على الأرض ، فوجد كتكوتا يطل منها ، وهو يستقبل أشعة الشمس لتذيب زغبه الأصفر .

ترامت إلى خياشيمه رائحة حياة جديدة.

٣. الإنسان :

دلفا إلى الحديقة ، وكان وجه الفتاة ضامرا ، كأنه حطبه ، وكان وجه الفتى أصفر كأنه ليمونة .

سار في الحديقة بتردد وحذر ، ينظران حولهما ، وكأنهما يخشيان شيئا ، كان يفصل بين جسد الفتى وجسد الفتاة نحو خمس بوصات ، أخذت المسافة بينهما تضيق رويدا رويدا ،

حتى تلاصق الجسدان ، أمسك الفتى بيد الفتاة ، وجلسا في خميلة تحت شجرة وارفة تغرد فوقها العصافير.

وفجأة ظهر حارس الحديقة ، أخذ يوبخهما ، ويأمرهما بالخروج.

سارا في ذلة وانكسار نحو الشارع ، اختفيا بين جموع الناس ، وترامى إلى أذنيه ضجيج السيارات ، وصوت الباعة الجائلين.

٤. اللغز :

قالت له :

- هل الفرخة من البيضة أو البيضة من الفرخة ؟ أجابها بلغز أكثر غموضا:
- وهل الإنسان يعيش ليخاف ؟ أم يخاف ليعيش ؟

وقفت هي حيرى ، أما هو فقد ود أن لو كان فرخة.

أدعية مأثورة

الحمد لله الذي نجاني من كل مكروه ، وجنبني كل سوء : فقد سرق عقد ثمين من إحدى قريباتي ، وكنت يومها صبيا صغيرا لم أتجاوز الثانية عشرة ، وقالت : إن عبدالحميد قد سرقه ، وقال الناس هذا مستحيل ، فعبدالحميد يحفظ القرآن ، ويتلوه علينا في رمضان .

الحمد لله الذي نجاني من كل مكروه ، وجنبني كل سوء : فقد كان لي ابن عم شرير ، طلب مني في إحدى الأمسيات المظلمة أن نسير بين المزارع ، وفي منتصف الطريق اندفع إلى داخل الذرة ، وتركني وحيدا عرضة للذئاب والكلاب والأعيرة النارية . وجاء الناس وقالوا : عبدالحميد هنا ، شيخنا الذي يصلي بنا الجمع والأعياد ، وتحلقوا حولي حتى أوصلوني إلى الدار مطمئنا أو سالما .

الحمد لله الذي نجاني من كل مكروه وجنبني كل سوء : فقد حدثت مشادة بين والدي وسالم نجار القرية ، وبحكم عنف الشباب اندفعت نحو سالم وأوقعته على الأرض ، وفي المساء قتل مجرم القرية حسين أبوخليل سالم النجار ، وقال إن عبدالحميد هو الذي قتله ، فقال الناس هذا مستحيل ، فعبدالحميد شيخ أزهري يفتينا في أمور الدين ، ويبين لنا الحلال من الحرام .

الحمد لله الذي نجاني من كل مكروه ، وجنبني كل سوء : فقد سرق تلميذاي كراسات الامتحانات من مكتبي ، وكنت يومها عميدا لكلية دار العلوم بجامعة المنيا ، واتصلا بالرقابة الادارية وأمن الدولة ، لكي يحولا بيني وبين العمادة فترة جديدة ، ولكن رجلا من أمن الدولة لا أعرفه ، ومازلت لا

أعرف اسمه حتى اليوم ، اتصل بي ، وقال : لا تخف إن من كتب الوسطية لن يخذيه الله أبدا .

شكرا لله ! الذي يهئ لي من حب الناس ، ما يجعلني ثابت الجنان أسير في طريقي لا أخشى إلا الله.

شكرا لله ! الذي جعلني محسودا ولم يجعلني حاسدا ، شكرا لله الذي جعلني مظلوما ولم يجعلني ظالما.

****

يارب ! يامن كنت مع موسى ترعاه وهو في ظلمات الصندوق ، وهيأت له من يقول " قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا " كن معي إذا مكر بي الظلمة والبغاة .

يارب ! يامن كنت مع يونس ترعاه في بطن الحوت كن معي ، فلا أتسرع بالغضب ، ولا أحقد على الجاهلين ،وأدعو لهم دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ".

يارب ! يا من كنت مع يوسف في ظلمات الجب ، كن معي ! إذا مكر بي الأعداء ، أو كاد بي الأقرباء ، فان مكر الغرباء ، أو كيد الأعداء قد يحتمل ، أما مكر الأصدقاء والأقرباء ، فهو كسم الأفعى يهري الكبد والقلب .

يارب ! يا من كنت مع محمد في عام الحزن ، وعرجت به نحو سدرة المنتهى ، وأريته مت آياتك الكبرى ، وجعلته يعود واثقا من عدالتك مؤمنا بنصرتك ، يارب كن معي حين تلم بي الأحزان ، فأصعد نحو ملكوتك ، وأتلقى من فيوضاتك ما يجعلني قويا ، لا أعبأ بالأحزان ، ولا بالإحباط حتى أصل إلى نهاية الطريق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى كل من سار في طريقه إلى يوم الدين.

أنا...والمسمار

وضع المسمار على الحائط مثبته . دق عليه دقا عنيفا فانثنى . أخذ المطرقة وجعل يعالجه حتى استقام . قربه مرة أخرى من الحائط . أخذ يدق عليه دقات خفيفة ومتتالية . دخل المسمار في الحائط حتى منتصفه . وضع عليه إطار الصورة ولكن الصورة تأرجحت . قال لنفسه : لابد من مسمار ثان . وضع المسمار الثاني بجوار المسمار الأول . أخذ يدق عليه دقات متوالية . أصابت المطرقة يده فأدمتها . ربط الجرح وأوقف نزيف الدم . جعل يدق على المسمار الثاني دقات خفيفة ومتوالية ، وصل المسمار الثاني إلى مستوى المسمار الأول . امسك بإطار الصورة وعلقه على المسمارين تأرجحت الصورة. قال لنفسه لابد من مسمار ثالث . وضع المسمار الثالث أسفل المسمار الأول . دق على المسمار الثالث دقات متوالية ، تفتت القشرة الخارجية من الحائط . ووقعت المسامير الثلاثة . تصبب العرق من يده . سخنت جبهته ، قال لنفسه : لابد من أن أختار موضعا آخر من الحائط ، ولابد أن يكون الموضع في منتصف الحائط حتى يمكن رؤية الصورة بوضوح . ارتفع فوق ظهر الكرسي . اختار موضعا جديدا لائقا . دق على المسمار الأول دقات خفيفة ومتوالية . وصل المسمار الأول إلى منتصفه . وضع بجانبه المسمار الثاني . دق على المسمار الثاني دقات خفيفة ومتوالية . وصل المسمار الثاني إلى منتصفه . وضع المسمار الثالث أسفل المسمار الأول. دق على المسمار الثالث دقات خفيفة ومتوالية . وصل المسمار

الثالث إلى منتصفه . أخذ إطار الصورة وعلقه على المسامير الثلاثة . تأرجحت الصورة قال لنفسه : لابد من مسمار رابع . وضع المسمار الرابع بجوار المسمار الثاني وأسفل المسمار الثالث . أخذ يدق على المسمار الرابع دقا خفيفا ومتواليا . أصبحت الأمور صعبة لارتفاع المكان وضيق المسافة بين المسامير الأربعة . تصبب العرق من بدنه . ارتفع على قائم الكرسي ، أخذ يدق المسمار الرابع دقا خفيفا ومتواليا ، وصل المسمار الرابع إلى منتصفه . تساوت رؤوس المسامير الأربعة . علق إطار الصورة على المسامير الأربعة . لم يتأرجح الإطار . أصبحت الصورة في مكانها يمكن رؤيتها بوضوح .

فرح فرحا شديدا. انتظر أن يسمع تصفيقا من القاعة . لم يصل إلى أذنيه شئ . نظر إلى القاعة . كانت القاعة خالية إلا من قلة قليلة ، أعطته ظهورها . كانت هذه القلة مشغولة بالأحاديث والثرثرة .

سمع صوتا يأتيه من الركن الأيمن من القاعة ، ويقول له : هذا شئ جميل ، هذا شئ رائع ، شكرا لك . ارتاحت نفسه . لم يتبين صاحب هذا الصوت ، وقد كان في منطقة يختلط فيها الظلام بالضوء . خيل إليه أن هذا الصوت لا يصدر من شخص واحد ، إنما يصدر من ألف جوقة وجوقة.

رجع إلى الوراء . نظر إلى الصورة . ذهب عنه تعبه . توجه نحو باب القاعة . فتح الباب . استقبل الهواء الطلق . انتعشت نفسه .

وقال له الشيطان:
- "إن أردت أن تكون أغنى الناس ، فأمامك هذه الأرض الواسعة فامتلكها ، وكل ما استطعت أن تجري فيه يصبح ملكك ، فان جريت فرسخا امتلكت فرسخا ، وان جريت أكثر من فرسخ امتلكت أكثر .
استجاب الرجل لإغراء الشيطان ، وأخذ يجري في الأرض وكلما جرى فرسخا طمع في أن يجري أكثر ، حتى سقط ميتا وفمه محشو بالتراب".
أغلق لقمان الكتاب ، والتفت إلى ابنه وهو يقول :
- هذا كل ما ورد في الكتب ، أما أبوك لقمان فانه يستطيع أن يضيف إلى هذه الكتب بداية ونهاية.

الملاك والشيطان

تبدأ القصة وقد انتهى الرجل من ركعتي الفجر ، ورفع يديه نحو السماء خاشعا ، وهو يدعو :
" اللهم إني أسألك أن أكون أغنى الأغنياء ".
وأرسل الله إليه ملاكا وشيطانا .
قال له الملاك :
- أنت تملك منزلا جميلا ، تحيط به حديقة غناء ، ولك زوجة أنيقة ، وأولاد قرة أعين ، فاشكر الله على نعمته ، وارض بما أنت فيه تكن أغنى الأغنياء ، وأطعم الفقراء والمساكين ، وانشر في القرية تعاليم الدين.
وقال له الشيطان :
- إذا أردت أن تكون أغنى الناس ، فأمامك هذه الأرض الواسعة فامتلكها ، وكل ما استطعت أن تجري فيه يصبح ملكك ، فان جريت فرسخا امتلكت فرسخا ، وان جريت أكثر من فرسخ امتلكت أكثر.

وتنتهي القصة وقد جاء الشيطان إلى الرجل وهو يعاني سكرات الموت ، وقال له ساخرا :

- إني دعوتك فاستجبت لي ، فلا تلومن إلا نفسك .

وأضاف الشيطان ليزيد من عذابات الرجل :

- إني برئ منك ، إني أخاف الله رب العلمين.

وتركه الشيطان وانصرف ، وهو يرسل وراءه أطيطا ، له صوت مثل صوت الريح.

يارب!

كانت الليلة ليلة القدر ، وفيها سلسلت الشياطين بأصفاد من حديد ، وتنزلت الملائكة والروح فيها ، تجوب أرجاء القرية ، تصلي لله وتدعو لعباده الصابرين ، وتنشر الأمن والسلام حتى مطلع الفجر.

كان الحاج عبد الهادي من كبار القرية ، أصابه شلل نصفي ، فأقعده عن الحركة .

زحف الحاج عبدالهادي نحو المسجد ، وانخرط في الصلاة ، وأحس أنه قريب من الله وهو في سجوده ، فأخذ يدعو : يارب ! انحني القوة والحركة وأخذ يكرر دعاءه في خشوع وتضرع.

رفع الحاج عبدالهادي رأسه من السجود فانتصب واقفا ، وتحرك في المسجد ، وأخذ يهلل ويكبر فرحا بشفائه . تزاحم حوله المصلون يكبرون ويهللون لعظيم قدرة الله ، وقد تلألأت فوقهم أنوار الثريات ، فكست المكان رهبة وخشوعا.

تنبه الحاج عبدالهادي لنفسه ، واستدرك يقول في ذلة :

- ولكن نسيت أن أدعو الله بأن يشفيني من مرض السكر أيضا .

تبسمت الملائكة لطهارة قلب الرجل ، ودعت الله بأن يقدر له كل خير ، بحق تلك الليل المباركة ، التي يفرق فيها كل أمر .

الـهدهد
يتكلم بالحكمة وفصل الخطاب

تفقد سليمان الطير ، واكتشف أن الـهدهد كـان مـن الغـائبين ، واضـمر فـي نفسـه شيئا .ومـا هـي إلا هنيهـة ، حتـى حضـر الهدهد وهو يرتجف ، وقف أمام سليمان ، وقال :

- اعذرنـي فقد تأخرت .

قال لـه سليمان يتـهدده :

- لأعذبنك عذابا شديدا.

قال الـهدهد:

- هذا يـهون .

قال سليمان :

- لأذبحنك .
- و هذا أيضـا يـهون .

قال سليمان وقد كاد صبره ينفد :

- ومالذي لا يـهون ؟
- أن تضعني بين قوم لا يعرفون قدري

عندئذ سكت عن سليمان الغضـب ، وعفـا عن الـهدهـد ، بعد أن أدرك أنـه يقول الحكمة وفصل الخطاب.

الغراب والبشير

صاح الغراب فوق جذع النخلة . ارتفع صوته .
قال الزوج في هلع :
- الغراب ينعق اطرديه .
قالت الزوجة في هدوء :
- الغراب يبشر . سيأتينا خطاب من ابننا الغائب .
طار الغراب . دق ساعي البريد الباب . وجاء الخطاب .
قرأ الزوج الخطاب . انزاح عنه هلعه وأحس بالهدوء.

درس من النملة

تحركت النملة ، وفوق رأسها حمل من فتات الخبز ، يفوقها حجما ووزنا . ترنحت ، وسقط الحمل . عالجته حتى حملته . سارت ببطء ، وترنحت وسقط الحمل وحملته وسارت به ببطء ،حتى وصلت إلى بيت النمل ، وألقت بحمولتها .

عادت النملة من جديد ، وكررت المحاولة نفسها ،وحملت الحمل وسارت به ، وترنحت وسقط الحمل وحملته من جديد وسارت به ، حتى وصلت إلى بيتها ، وألقت بحمولتها ، وعادت وأخذت تكرر المحاولة ، حتى امتلأ بيت النمل بالخبز ، وضمنت لنفسها ولجماعتها ، شتاء دافئا ، وزادا وافرا.

كان صاحبنا قد ألمت به في الآونة الأخيرة متاعب صحية ، جعلت حركته بطيئة ومحسوبة ، واخذ ينظر إلى الآخرين ، وهم يتحركون ويقارن ، وأصابه هذا بشئ من الانقباض والكدر ، جعله ينعزل عن الناس ، ويقعد في بيته ، ويخفف من حركته .

ولكنه الآن تعلم الدرس تماما من النملة ، وقرر أن يخرج من محبسه ، وأن يعمل كما النملة تعمل ، وأن يعمل لأنه محكوم عليه بأن يعمل ، وأن يعمل لأنه يحب أن يعمل ، وأن يعمل حتى لا يموت كدرا وضجرا .

قال لقمان لابنه وهو يعظه:

- يابني : الكل ميسر لما خلق له ، والكل يعمل بما يسره الله ، النملة تحمل حملها ولا تسأل ، والنحلة تفرز شهدها ولا تسأل ، والعصفورة تبني عشها ولا تسأل . أما الإنسان فهو أرقى الكائنات ، هو يعمل ويتأمل ويشكر الله على ما انعم .

قال الابن لأبيه لقمان ، وكأنه يشير إلى قصة صاحبنا وما أصابه من كدر وضجر :- ولكن بعض الناس يا أبي لا يشكرون الله على ما عندهم ، ويتطلعون إلى ما عند غيرهم فيصابون بالكدر والضجر.

قال لقمان ، وقد عرف ما يشير إليه ابنه :

- إن الإنسان إذا عمل وشكر يكون في منزلة الملائكة . أما إذا لم يشكر الله على ما عنده ، وتطلع إلى ما عند غيره ، فانه يكون أدنى من حشرة أو من نملة . ثم تلى على ابنه قول الله تعالى في سورة النساء :

" ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ".

عند هذا الحد خر الابن ساجدا ، واخذ يدعو الله ويقول :

" رب يسرني لما خلقت له . رب أرضني بما يسرته لي . رب نجني من الحقد والحسد والضغينة والكراهية وسائر الآفات النفسية ".

وأخذ الابن يدعو ويكرر الدعاء في خشوع وتضرع حتى امتلأت عيناه بالدموع ، وأشفق عليه الأب وأنهضه وهو يربت على كتفه ويقول له:

- يابني! هون عليك . فان الله لا يخيب رجاءك ، قم واسع في الأرض ، وابتغ من فضل الله وادع الله عند كل خطوة تخطوها ، فان الله يجيب من دعاه.

قال قائل

أكلت الغيرة قلوب إخوة يوسف ، ولعب الشيطان بعقولهم . فهاهو يوسف ن يرتفع نجمه ، فالله تعالى يجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه، والأب يحبه ويؤثره عليهم وهم عصبة . ومن هنا أزمعوا أن يقتلوه أو يطرحوه أرضا ، عسى أن يتخلصوا منه ، ويخلوا لهم وجه أبيهم ، ويكونوا عنده من المقربين .

خرجوا بيوسف إلى الخلاء ليلا وقد دبروا لجريمتهم ، وبينما هم منهمكون في تنفيذ الخطة ، قال قائل منهم بصوت خفيض:

- لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابات الجب ، يلتقطه بعض السيارة ، إن كنتم فاعلين.

كان الصوت مفردا ، ولكنه لمس جانب الخير في قلوب الإخوة ، فأصغوا له ، وأصبح صوت المجموعة ، واستقر رأيهم على أن يلقوه في غيابة الجب ، ونجا يوسف.

قال لقمان لابنه وهو يعظه :

- يابني ! لا تقللن من قيمة كلمة ، حتى لو كانت صغيرة وخفيضة أمام الجموع الهادرة ، ورب كلمة عارضة تفعل مالا تفعله السيوف القاطعة.

قال الابن وهو يتم ما قاله أبوه لقمان :

- ولولا أن قال القائل من الإخوة ، ما نجا يوسف ، ولما انتشر ، ولما أصبح قيما على خزائن مصر ، ولما انتشر التوحيد في بلاد فرعون ، ولما عاد البصر إلى يعقوب ، ولما تغير وجه التاريخ .

نهض الأب من مرقده ، وحمل خرجه على كتفه ، وتوكأ على عصاه ، وقال لابنه:

- إنـي راحـل لأقـول كلمتـي أمـام هـذا السـلطان الجـائر، وانـي أعرف أن رقبتي ستكون ثمنا لهذه الكلمـة ، ولكننـي موقن أن كلمتي لن تذهب هدرا ، ستحرر الملايين والملايين من كل سجن كل فرعون وطاغية ، وستتحول إلـى وقود تشعل نـور الحرية والإيمان .

غاب الأب عن مرمى البصر .ولكن الابن رأى ببصيرته ملايين وملايين تسير فـي طريق لقمان وتغمغم بكلام ، لـم يتبين منه الابن إلا كلمة : لقمان .

عندئذ أيقن الابن تماما أن أباه لقمان قد تحول إلـى روح خالدة ، فصلى لله صلاة الشكر ، ودعا ربه أن يمنحه الشهادة في طريق الجموع الخالدة والمخلصة.

قالت نملة

انطلق سليمان بجنوده وحشوده يدك الأرض دكا ، طار الغبار من حوله ، وارتفع صليل سيوفه وصليل خيوله ، وتعالت قعقعة الآلات الحربية.

فر كل شئ مذعورا أمامه ، ولجأت الوحوش إلى آجامها ، والطيور إلى وكناتها ، وأفسح كل شئ له الطريق.

أحس سليمان في داخله بالكثير من الرضا ، فقد أتاه الله من الملك مالا ينبغي لأحد بعده ، وهاهو الجن والإنس والطيور والحيوانات والسحاب والرياح كل تحت إمرته ، ويعملون بمشيئته.

استغرق سليمان في أفكاره وأحلامه ، ولكن صوتا يأتيه من بعيد يخرجه عن أحلامه وأفكاره ، كان الصوت واهنا وضعيفا ،تبين الصوت لسليمان ، فإذا هو صوت نملة تحذر قومها من جيوش سليمان ، وتقول لهم :

- يا أيها النمل ! ادخلوا مساكنكم ، ليحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون .

تبسم سليمان ضاحكا ، ووعى الدرس تماما ،وأمر جيشه ألا يزعج الطيور في وكناتها ولا الوحوش في آجامها وألا يكدر على شيخ أو كبير أو راهب ، وألا يقتلع شجرا ولا زرعا ولا نخلا . وسجد لله شاكرا على أن هداه إلى ما لم يهتد إليه أحد من العالمين.

قال لقمان لابنه وهو يعظه :

- لا يزال الحكيم يتواضع ويتواضع ، حتى يكتشف الحقيقة حوله ، ولو كانت في أدنى الأشياء . ولا يزال الأحمق يتعالى ويتعالى ، حتى يطمس الله على قلبه ، فلا يرى الحقيقة ولو كانت ماثلة أمام بصره .

قال الابن وهو يكمل حديث أبيه من حيث انتهى :

- وقد أدرك سليمان عليه السلام الحكمة في حديث النملة ، فألهمه الله الحقيقة التي كانت خيرا عليه وعلى أبويه وعلى ذريته ، ثم تلى قول الله تعالى على لسان سليمان :

- " رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي ، وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه ن وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك ، واني من المسلمين ".

قال لقمان لابنه : نعم الخلف الصالح أنت .

وقال الابن لأبيه:

- ونعم السلف الصالح أنت .

ثم تداخلا وتعانقا ، وأصبحا شيئا واحدا ، لا تستطيع أن تميز بين الأب والابن .

الملكة والذكر

ارتفعت ملكة النحل تشق عنان السماء ، انطلق وراءها الذكور كل يشتهيها لنفسه ، تساقطوا واحدا اثر الآخر ، وبقى أقواهم ، ظل يرتفع ويرتفع حتى أدركها ، عندئذ أسلمت نفسها إليه ، وغابا في لذة عميقة ، خرج منها الذكر ميتا قد استل عضوه ، وخرجت منها الملكة تحلم بوليدها الجديد.

قال الابن لأبيه لقمان في نبرة اعتراض:

- يفنى الطامح القوي ، أما الخامل الضعيف فيبقى !

قال لقمان لابنه في نبرة عتاب :

- ولكنك لا تعرف ، فان الطامح القوي قد خلد نفسه ، وحفظ نسله . أما الخامل الضعيف لم يبق له أثر ولا نسل ، فأيهما الباقي وأيهما الفاني.

قال الابن يواصل كلامه :

- وتبعها أقواهم حتى أدركها ، وحينئذ لقى حتفه .

لو أنه وقف مكانه ، يلعق أحلامه لما لقى حتفه ، ولما اختلطت علينا الأمور ، فلا ندري حدود اللذة من الألم ، ولا حدود السعادة من الشقاء ، ولا الخير من الشر!

قال الأب وكأنه يؤنب ابنه :

- تختلط عليك الأمور بحكم عقلك القاصر ، أما الناموس الإلهي فله حكمة أبعد من ذلك ، فلو لم يمت الذكر لما ظهر جيل جديد ، والله يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي !

وعادت الملكة إلى خليتها ، واتكأت على أريكتها وحام حولها الشغالة يخدمنها ، يقدمن الغذاء الخاص ، وينظفن الخلية ، ويرفرفن بأجنحتهن لتلطيف الجو ، ويهللن انتظارا للوليد الجديد .

قال الابن لأبيه لقمان وقد لانت ملامحه :
- الآن شرح الله صدري ، وشكرا لله على أن منحني أبا مثل لقمان ، دعني الآن أذهب ، وسآتيك حين تحين الصلاة لاتخذك إماما.
قال الأب لابنه وقد انفرجت أساريره :
- ليس قبل أن تقرأ قول الله تعالى :
" وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ".
قال الابن في خشوع : صدق الله العظيم.

حق الاختلاف

أخذ لقمان يقرأ وتلاميذه يستمعون :

" خرج هارون الرشيد حاجا ، يمشي على قدميه من بغداد إلى مكة . وفي الصحراء المقفرة هجم عليه أسد كبير واستطاع هارون الرشيد أن يهزم الأسد ، وأن يصل إلى مكة سالما معافي ، وبعد أن طاف وسعى وقصر كشف عن شخصيته ، ومنح العطايا للفقراء والمساكين ، فأخذوا يهتفون باسمه ويلهجون له بالدعاء ".

قال أحد التلاميذ متشككا :

- لا أصدق هذا ، أمن العقل أن يخرج هارون الرشيد حافيا من بغداد إلى مكة !
- قال الثاني : ولكن العقيدة تزود صاحبها بالقوة فيستطيع مالا يستطيعه الآخرون .
- وقال الثالث : وكيف يستطيع وهو الإنسان الضعيف أن يهزم الوحش الكاسر .
- قال الرابع : ولكن عناية الله قد أحاطته ، ومنحته من الكرامات ما يستطيع به أن يتغلب على الأسد الجسور.

رفع الابن رأسه بعد إطراقة طويلة ، وقال لأبيه لقمان يستو عظه:

- إذا كان هناك هذا الاختلاف المتباين حول أسطر قليلة ، فكيف يمكن أن نركن إلى ما جاء في كتب الأدب والتاريخ والتفسير من أمثال هذه الحكايات .

قال لقمان لمن حوله بهدوء :

- فليختلف الناس كيفما يختلفون ، ولكن هناك حقيقة أكيدة وثابتة ، وهي أن الاختلاف سنة كونية ، ومن طبيعة البشر .

ثم تلا عليهم قول الله تعالى :" ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ".

وأذن المؤذن للصلاة ، فاتفقوا جميعا وبلا خلاف على أن يجعلوا لقمان إماما للصلاة .

ولما فرغ لقمان من صلاته استقبل تلاميذه وقال لهم في صوت يبعث اليقين والسكينة :

- انظروا إلى السحب المتناثرة في السماء ، ماذا ترون ؟
- قال الأول : أرى بطة كبيرة تسبح في ماء .
- وقال الثاني: أرى نعامة كبيرة تجري .
- وقال الثالث : أرى زهورا وأشجارا .
- وقال الرابع : أرى رجلا يصعد نخلة .

قال لقمان بعد أن أصغى إليهم في ثبات :

- كلكم على حق ، وكلكم رأى ما يجول في خاطره ، وكلكم منح تشكيلات السحاب تنوعا وجمالا ، واختلافكم رحمة ، فلا يقسو أحدكم على الآخر.

كان ما قاله لقمان أشبه بالورد عقب الصلاة، فنزل على قلوبهم بردا وسلاما ، وأقبل بعضهم يسلم على بعض ، وتفرقوا على أمل اللقاء في الغد المرتقب.

حكاية الملك والحكيم

بعث الملك مناديه ، يجوب أرجاء المملكة ، ويعلن :

" من استطاع منكم أن يقص علي حكاية بلا نهاية ، زوجته ابنتي ، وأعطيته نصف المملكة ، ولم يستطع قطعت رقبته ".

وتقاطر الناس عليه واحدا اثر الآخر ، ولكنهم جميعا فقدوا رقابهم. وذات يوم أقبل من الصحراء البعيدة رجل يتوكأ على عصاه ، ويحمل فوق ظهره صرة ، بها أوراق ومخطوطات . وقف الرجل أمام الملك ، وقال:

" أنا مخترع حكايات ، وصانع كلمات . أستطيع أن أقص عليك الحكاية بلا نهاية ، وان أقصها بنهاية . ،استطيع أيضا أن أرتفع بك إلى السماء ، وأن أخوض بك البحار ، وأستطيع أن أضحك من أشاء ، وان ابكي من أشاء " . تعجب الملك وقال له :

- هل تعرف الشرط؟

تحسس الرجل رقبته ، ولكنه استدرك قائلا :

- نعم أعرفه.
- إذن فاقصص .
- قال الرجل :" يحكى أنه كان في سالف العصر والأوان ، رجل شديد البخل يقتر على نفسه وعلى أهله وعلى من حوله ، ويجمع حبة القمح حبة بعد حبة ، ويضعها في صومعة الغلال حتى امتلأت ، ثم أغلق عليها بالطين والأحجار . وتشممت جماعة النمل رائحة القمح ، فصنعت لها ثقبا صغيرا في الصومعة لا يسمح إلا بمرور نملة واحدة . تدخل النملة وتحمل حبة قمح وتخرج وتدخل الأخرى وتخرج وتدخل الأخرى وواحدة تخرج وواحدة

تدخل ، ووواحدة تخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ...الخ .

وأحس الملك أن الحكاية لا تنتهي ، فحبات القمح كثيرة ، وجماعات النمل كثيرة ، فقال للرجل بخبث وخداع :

- انك قلت أنك تستطيع أن تنهي الحكاية متى شئت .
- قال الرجل : إذن فاسمع :

" فنظر الرجل البخيل ذات يوم في صومعة الغلال ، فوجد حبات القمح قد تناقصت ن فسقط ميتا ".

عندئذ صفق الملك بيديه وصاح بانتصار :

لقد انتهت الحكاية ، أيها الجلاد اقطع عنقه . قال الرجل في ثقة :

- إن الحكاية لم تنته بعد يا مولاي ألم أقل لك أني مخترع حكايات وصانع كلمات ، اسمع مني بقية الحكاية :

" تشممت جماعة النمل جثة البخيل ، وتركت الصومعة وأقبلت عليه ، وفتحت في بطنه ثقبا صغيرا لا يسمح إلا بمرور نملة واحدة ، واحدة تدخل وتحمل جزءا من أحشائه وتخرج فتدخل الأخرى وتخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ، واحدة تدخل وواحدة تخرج ....الخ "

ضاق الملك من هذا التكرار ، وقال للرجل منهيا الحديث :

- كف عن ثرثرتك ! سأزوجك ابنتي وأعطيك نصف المملكة .

ومات الملك ، وأصبح الرجل خليفة بعده وأزاح الخوف ، ونشر الأمن والعدل ، فاطمأن الناس على رقابهم ، وأقبلوا على أعمالهم ، وجلسوا كل مساء يروون لأطفالهم حكاية الملك والحكيم .

الحسود لا يسود !

رأيت فيما يرى النائم ، كأن ملاكا يعرج بي من سماء إلى سماء ، حتى حط في واد كالح مغبر تتقاذفه عواصف شديدة ، تشوي الوجوه وتدمي الأنوف ، وتنوح فيه طيور كالغربان السود .

التفت إليه الملاك وقال :

- هذا هو وادي الجحيم ، وسنعرض عليك صنوفا من العذاب ، ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

لوح الملاك بيده ، فانفتح باب خشبي كبير ، وكشف عن قوم ، تتقطع قلوبهم وأمعاؤهم ، وتنوشهم سهام نارية تأتيهم من بعيد ، فتمزق كل خلية من خلايا أجسادهم العارية .

قال لي الملاك :

- هؤلاء هم الظالمون ، وهذه السهام لنارية التي تراها هي سهام المظلومين وبقدر ظلمهم تزداد أعداد السهام النارية . انظر إلى السهام ، إنها تخترق أجسادهم حتى الجانب الآخر ، ثم ترتد إليهم بالقوة نفسها ، وتخترق أجسادهم من جديد ، ثم ترتد ثم تعود ، وتظل هكذا إلى أبد الآبدين ، لا يموتون فيها ولا يحيون ، بل يظلون يتعذبون ويتمزقون .

لوح الملاك بيده للمرة الثانية ، فصر باب خشبي عتيق ، وانكشف عن قوم تتدلى ألسنتهم خارج أفواهم وعليها دم وقيح وصديد .

قال لي الملاك :

- هؤلاء هم الكذابون تمتلئ ألسنتهم بالقيح والصديد . وبقدر كذبهم بقدر ما تطول ألسنتهم ، فيزداد ما عليها من قيح وصديد ، انظر إلى الذباب الذي يملأ أفواهم ، انه يتغذى على جروحهم فيزيدها التهابا وآلاما .

أشار الملاك بيده للمرة الثالثة فانفتح باب خشبي سميك ، عن قوم كأنهم الخشب المسندة ن عيونهم من مسامير صدئة وشعورهم كبعر الآرام.

قال لي الملاك :

- هؤلاء هم المنافقون لا حياة فيهم كأنهم الخشب والمسامير ، يتحركون مع كل ناعق ن فيفقدون المعنى ويصيرون كالجماد . انظر إلى السوس الذي يفري عظامهم فيحيلها إلى ذرات بيضاء كأنها التراب والرماد .

ومازال الملاك يهبط بي من باب إلى باب حتى وصل إلى قاع الجحيم ن وأشار بيده إلى باب جميل كأنه قد من خشب الورد ، فانفتح عن حجرة مكيفة عليها الفرش والوسائد والستائر ، ويتوسطها سرير من خشب الزان وتفوح فيها رائحة المسك ، وتصدح فيها الموسيقى الهادئة.

قلت للملاك :

- هذه هي الجنة بعينها ! أتريد أن تخدعني ، وما عهدت الملائكة إلا بررة صادقين .

قال لي الملاك :

- هون عليك ! انظر إلى ذلك الرجل النائم فوق السرير.

نظرت إلى الرجل ، فوجدت وجهه أشد صفرة من وجوه الظالمين والكذابين والمنافقين ، وتبينت تحت صدره نارا تغلي كغلي المرجل ، وتحت فرشه الوثير تتلوى عقارب وثعابين ن وتحت السجاد الفخم شوك حاد كأنه القتاد يلسع كل من يقف عليه .

قال لي الملاك وهو يشير إلى الرجل الأصفر :

- هذا هو الحسود عذابه من داخله ، انه لا ينعم بشئ مما حوله ، انه مشغول بغيره ، وكلما رأى نعمة عند أحد ، تحركت داخله عقارب وثعابين ونار تتلظى وأشواك تلسع

. ونحن نعرض على الشاشة أمامه صورة الناجحين والمشاهير ، فيزداد عذابه ، إن الحسود لا يسود .

صرخت من هول ما رأيت ، حتى استيقظت من النوم .

كان غسق الليل يتوارى ، ونور الفلق يتسرب نحو حجرتي ن فأحسست بالأمن واليقين ، ونفثت ذات الشمال واليمين ، حتى أطرد الشياطين ، وعزمت بعدها ألا أقترب أبدا من وجبة دسمة قبل النوم ، حتى لا تداهمني الكوابيس المزعجة.

حكاية لها بقية

أخذ الابن يحكي ، ولقمان يصغى :

" كان فيه قطعة جبن ، جاء الفار وقضمها

- ليه يافار !
- اشمعنا القط بياكلني .
- ليه ياقط
- اشمعنا الكلب بيعضني.
- ليه ياكلب.
- اشمعنا العصايا بتضربني.
- ليه ياعصايا .
- اشمعنا النار بتحرقني.
- ليه يا نار .
- اشمعنا الميه بتطفيني .
- ليه ياميا .
- اشمعنا الحصان بيشربني.
- ليه ياحصان .
- اشمعنا الانسان بيركبني .
- ليه يا إنسان .
- الرب مسلطني ".

أنهى الابن حكايته ، والتفت إلى أبيه ، وهو يقول :

- تمت الحكاية .

قال لقمان وبسرعة :

- لم تتم الحكاية بعد ، إن لها بقية فاسمعها مني :
- " ليه يا إنسان .
- اشمعنا الدود بياكلني .
- ليه يادود .

- الرب مسلطني ".

قال لقمان لابنه وهو يعظه :

- يابني أيظن الانسان نفسه محور الكون ، وأنه الغاية التي تنتهي عندها كل الأشياء . ولا يعرف أن فيروسا صغيرا قد يقتله ، وأن الدود يأكل لحمه وعظامه . يابني إن الدود يحول الانسان إلى ذرات تختلط بالتراب ، فينمو فوقها النبات ، وعلى النبات يعيش الانسان والحيوان ، وهكذا في دورة تمتد إلى ما شاء الله .

قال الابن ، وبصوت كأنه صوت أبيه :

- لو أدرك الانسان حقيقته ، لتطامن قلبه ، وخضع للناموس الأعلى ، الذي يجعل كل شئ ميسرا لما خلق له .

وتعالى صوت المؤذن يعلن " الله أكبر " ، فاتجه لقمان ومعه ابنه نحو المسجد ، وانخرط في الجماعة ، ونسيا ما كانا عليه من جدال وحوار .

عفريت من الجن

هبط سليمان من بساط الريح ، وأخذ يتجول في الفناء الممتد الواسع ، ويتفقد ما حوله ، فقد أتاه الله من الملك ما لم يؤت أحدا من العالمين. فهناك الطير ، والحيوانات ، والجن والأنس ، كل له أواب . وهناك الشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد .

انسحب سليمان نحو كرسيه ، وألقى بنفسه عليه ، وأخذ يرصد ما حوله من جديد ، وتقدم إليه الهدهد ، يجر ذيله ويهز تاجه ، يخبره بأنه اكتشف بلقيس ،في طريقها إليه آتيه من سبأ ، صاغرة ومستسلمة .

حك سليمان رأسه قليلا ، وواتته فكرة ، تبرهن على قوته وسيطرته ، وقال لمن حوله:

- أيكم يأتيني بعرشها هذا قبل أن يؤتوني مسلمين ؟

قال عفريت من الجن وهو يزهو بقوته وقدرته :

- أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، واني عليه لقوي أمين.

قال الذي عنده علم من الكتاب في جملة قصيرة تدل على تواضعه :

- أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وبين طرفة عين وانتباهتها كان العرش يبرق أمام الحاضرين ، وتجمع كل من في الفناء الممتد الواسع من انس وجان ، ينظرون إليه ، ويعجبون بلمعانه ، ويذهلون من صنعته ، ويلمسون الذهب والفضة والجواهر المرصوصة حوله .

ولكن سليمان لم يذهله بريق ولا لمعان ولم يغره ذهب ولا فضة ، بل انخرط في صلاته ، وأخذ يشكر الله على ما حباه من فضل ونعمة .

وعاد يجلس من جديد على كرسيه ونظر حوله وقال:
إن الرجل من أهل الإنس يؤتيه الله العلم ويخلص فيه ، فان الله سيجري على يديه من الكرامات والخوارق ، ما لا يستطيعه أحد حتى لو كان عفريتا من الجن.

الحمار والجنرال

فتح المعلم الكتاب ، وأخذ يقرأ للتلاميذ قصة "القرد والحمار " :

كان القرد يغيظ الحمار ويقول له : تعال ياحمار ، اذهب ياحمار ، تحرك ياحمار ، كل ياحمار ، تكلم ياحمار .

ذهب الحمار إلى الأسد يشكوه ، وطلب منه أن يعطيه اسما جديدا ، قال له الأسد :- إذن اسمك الجيد هو سمكة.

ذهب الحمار إلى القرد ، ولما رآه القرد من بعيد قال له : من أين أتيت ياحمار؟

- قال الحمار : ليس اسمي حمارا وإنما اسمي سمكة .
- قال له القرد : هل تعرف أن تعوم ؟
- قال الحمار : لا .
- قال له القرد : إذن أنت حمار .

أغلق المعلم الكتاب ، ونظر إلى التلاميذ وهو يقول :

- الحمار حمار ولو كان اسمه سمكة ، والأسد أسد ولو كان اسمه فأرا.

قال تلميذ صغير ، لا يحسن عواقب الأمور :

- وماذا لو أن الحمار كان اسمه جنرالا .

تلفت المعلم حوله وقال هامسا :

- إذن انتظروا الساعة .

غابت الشمس وراء الأفق ، وخيم الظلام على المكان ، وخاف التلاميذ من العفاريت واللصوص ، ففروا إلى منازلهم ، وأغلقوا الأبواب وراءهم.

الديك الأحمر

تقول النكتة :

كان ياماكان حظيرة دجاج ، بها فراخ كثيرة وعشرون ديكا ، الديك الأحمر هو الذي يقوم بالمهمة مع الفراخ ، ولما سئل عن بقية الديوك ، قال لهم :هم مستشارون .

تقول شهرزاد :

بلغني أيها الملك السعيد ، ذو الرأي الرشيد ، أن حاكما مستبدا يقوم بكل شئ في المدينة ، وهو الرجل الوحيد ، ويجمع حوله مجموعة من الخصيان ينفذون له كل شئ ، فيرفعون سيف الإرهاب على شعبه . وذات مساء هجم التتار على قصر الحاكم ، فخرج عاريا إلى الشارع ، وأحاط به الشعب وقتلوه ، وفتحوا الباب للتتار ، واستقبلوهم بترحاب .

يقول الراوي معلقا على النكتة :

وخرج الديك الأحمر إلى المدينة ، تحيط به الدجاجات من كل جانب ، وهو يترنح غرورا ، وفي حنية من حنيات الشارع ، خرج عليه الديوك التسعة ، وقتلوه ، واختلفوا فيما بينهم على من يكون الديك الأحمر ، وحدث بينهم نقار شديد قتل فيه الديوك التسعة ، وخلت الحظيرة من الديوك ، وعقمت النساء ، وانقطع النسل .

يوسف الرابع

يوسف الأول :

ارتفع تمثال سعد زغلول في منتصف الميدان ، الوجه وجه أسد ، والجسم جسم إنسان ، والذراع اليمنى مصوبة نحو النيل ، والأصبع يهيب بالجماهير .

اندفعت جموع غفيرة من الجماهير تحت ذراعه ، وهي تزمجر وتنشد : بلادي بلادي . اتجهت نحو النيل ، اختلطت بمياهه ،وصارت موجة من أمواجه تهدر نحو الشمال .

وقف يوسف الأول تحت التمثال ، انفعل مع الجماهير ، وأخذ يهتف وينشد ، اتجه معها صوب النيل ، اختلط بمياهه وصار موجة من أمواجه تهدر نحو الشمال .

يوسف الثاني:

وقفت قاعدة التمثال في منتصف ميدان التحرير ، وكانت خالية ، تنتظر أن يقام فوقها تمثال جمال عبدالناصر . امتلأ الميدان بجموع غفيرة من الطلاب والشباب ، أخذوا يهتفون وينشدون : الله أكبر ، الله أكبر . كانت النكسة في بدايتها ، والأصوات مجروحة ، والهتافات مذبوحة . اندفع الشباب نحو الشمال، فردتهم قوات الأمن . اندفعوا نحو الجنوب ، فردتهم قوات الأمن . اندفعوا نحو الشرق ، فردتهم قوات الأمن . اندفعوا نحو الغرب ، فردتهم قوات الأمن . أخذوا يدورون حول أنفسهم في حلقة مفرغة .

وقف يوسف الثاني تحت قاعدة التمثال الخالية ، انفعل مع الشباب و أخذ يهتف وينشد ،ازداد حماسة ، جعل يحرك

ذراعـه اليمنـى بحركـات مندفعـة ، وكأنـه يحـارب طـواحين الهواء ، ففتح فمه بأقصى ما يستطيع ليصرخ . ولكن ضربة فاجأته على رأسه ، لم يستيقظ منها إلا وهو في سجن القناطر الخيرية ، وكانت ذراعه اليمنى مكبلة بالحديد ، وفمه مكمم بأربطة من صوف .

يوسف الثالث :

سألوه : هل تعرف شيئا عن خالك يوسف الأول ؟ فلم يجب.

وسألوه : هل تعرف شيئا عن عمك يوسف الثاني ؟ فلم يجب .

ولما الحوا عليه في الأسئلة ، أدار لهم ظهره ، واندمج في تليفونه المحمول ، وأخذ يصغي لإيقاعات الفيديو كليب .

يوسف الرابع :

مغ مغ مغ   غم غم غم   تم تم تم   قب قب قب
أم أم أم   فأ فأ فأ   ثأ ثأ ثأ   بط بط بط

أصغت الأم لابنها يوسف الرابع ، وهو يغمغم بهذه الكلمات ، فأدركت أن ابنها أصم وأبكم ولا يبين ، وأجهشت بالبكاء.

نظرت إلى صورة أبيها يوسف الأول المعلقة على جدار الحائط ، ثم نظرت إلى ابنها يوسف الرابع ،وأجهشت بالبكاء .

أعـادت النظـر إلــى صـورة أبيهـا ، الوجـه وجـه أسـد ن والجسم جسم إنسان ، وجدته يبتسم لها ، ويمد يديـه نحوها . ابتسـمت لـه ، ومـدت يـديها نحـوه ، واحتضـنت الصـورة ، وأجهشت بالبكاء .

ترامـى إلـى أذنيهـا صـوت الجمـاهير ، تنـدفع نحـو النيـل ، وتختلط بمياهه ، وتنشد : بلادي بلادي .

أقدار

قيل لـه : إن أخـاك قـد اختلـف مـع الجيـران حـول قطعـة أرض فضربوه حتى مات.

التقط بندقيته وهرع نحو الخارج ، وأقسم ليقتلن منهم بـدل الواحد اثنين ، فداء لدم أخيه.

لمح أول رجل من الجيران فصـوب نحـوه بندقيتـه ، ولكـن العيار لم ينطلق ، وصوب عيارا ثانيا ، ولكنه لم ينطلق أيضـا ، ثـم صـوب العيـار الثالـث ، فـانطلق العيـار ولكنـه لـم يصـب أحدا فقد هرب الرجل بسرعة وتوارى بعيدا .

اقبل نحوه ابنه واحتضنه لكي يهدئ من روعه وأقسم لـه على أن أخاه لم يزل حيا ، فقد رآه بنفسه يمشي وما بـه سـوى كدمات خفيفة.

لانـت أعصـابه ، وأعطـى البندقيـة لابنـه . قـال لابنـه وقـد اخلدا إلى دارهما في جو عائلي:

- أتـذكر منـذ ثلاثـة أيـام ، حينمـا فحصـنا طلقـات البندقيـة ، ووضعنا الطلقات الفاسدة في كوم والطلقات الصالحة في كـوم آخـر وأمرتـك بـأن تلقـي بالطلقـات الفاسـدة فـي الترعـة ، وأن تحتفظ بالطلقات الصالحة في حقيبة البندقية؟

أجابــه الابــن وهــو يعتــرف بخطئــه :- ولكننــي نســيت فوضعت الجميع الفاسد والصالح في حقيبة البندقية.

أدرك الرجل السر فحمد الله ، وقام ليؤدي صـلاة الشـكر ، فقد قدر الله له خيرا مما قدر لنفسه.

موكب الرئيس

قال وزير الداخلية بصوت غليظ ، يحذر رجال الشرطة :
- خذوا بالكم ، انتبهوا جيدا ، فتحوا عيونكم ، موكب الرئيس سيمر في الشارع الكبير ، الرئيس مستهدف ، أخلوا الشارع من كل شئ ، أوقفوا حركة المرور ، فتحوا عيونكم جيدا ، لو حدث للرئيس شئ ستعرفون ما يكون مصيركم ، هيا انطلقوا إلى واجبكم .

حفظ رجال الشرطة الدرس تماما ، وأخلوا الشارع الكبير من كل شئ ، حتى أصبح كأنه شارع مهجور ، واصطف الجنود على جانبي الشارع ، كل جندي ملتصق بزميله ، يده على السلاح وعيناه نحو الشارع المهجور.

أما الجمهور فقد وقف خلف الجنود ، ظهورهم للحوائط وعيونهم نحو الشارع لينعموا بطلعة الرئيس ، وهو يهز يده في خيلاء .

وكانت المفاجأة الكبرى ، فان كلبا قد أغراه هدوء الشارع ، وخلوه من المارة ، فانطلق على طول الشارع يجري من أوله إلى آخره وهو ينبح ويهز ذيله في خيلاء.

أعجب الجمهور بهذا الكلب الشجاع ، الذي تجاسر على مالم يستطيعوا هم أن يتجاسروا عليه ، صفق الجمهور للكلب وتوالى التصفيق على الجانبين ، حتى ضج الشارع بأصوات التصفيق.

أما رجال الشرطة فلم يستطيعوا أن يكتموا ضحكاتهم بسبب تلك المفاجأة العجيبة.

نخلة ربنا

كان أبي الحاج إبراهيم كبير العائلة ، يستأثر وحده بنخلة طويلة ، بلحها أحمر ولذيذ ، يفضل كل أنواع البلح في القرية ، وكان يسميها " نخلة ربنا" ، فلا يقربها ولا يرجمها أحد بالطوب حتى لا تحل عليه لعنة الرب.

ومات أبي رحمه الله ، وأصبح عمي الشيخ مأمون هو كبير العائلة من بعده ، وأراد أن يستأثر وحده بالنخلة الطويلة فهي نخلة ربنا فلا يقربها أحد ، ولا يصح أن تقسم بين الورثة.

ولكن أخاه الأصغر (عربي) قال مستنكرا : " وهل ربنا سينزل من السماء ليأكل من بلح النخلة ، ولابد أن تقسم النخلة بين الورثة".

وأيدته بقية العائلة وقسمت النخلة بين الورثة . ولأول مرة يحمل (عربي) نصيبه من البلح الأحمر إلى بيته، ويلتهم أولاده من البلح اللذيذ ويحمدون ربنا على نعمته الكبيرة.

لقمان آخر زمان

قلت للقمان : - دلني على سكة السلامة.

أشار بيده إلى طريق ، سرت فيها. انتهت بي هذه الطريق إلى اللصوص وقطاع الطرق ، فعرفت أنها " سكة الندامة ".

رجعت مهزوما مهيض الجناح .

قال لي أبي يهدأ من روعي :

- هون عليك ! إن لكل زمان لقمانه . فإذا ما صلح الناس صلح لقمانهم ، وإذا ما فسدوا فسد لقمانهم . انظر إلى لقمان الحكيم ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحث على عزم الأمور ، فانتهى بقومه إلى سكة السلامة . أما لقمان آخر الزمان ، فانه يضلل الجماهير ، ويدفع بهم إلى شعاب غير مأمونة ، تنتهي بهم إلى سكة الندامة.

يقول الراوي

يقول الراوي عبد الحميد ابراهيم:
سـأروي لكـم ياسـادة يـاكرام سـبعا مـن حكايـات الأولـين تكون عبرة للآخرين :

****

(الحكاية الأولى)
"الخضر"

وقف فـي ميدان المنشية ، كأنـه بـاب مـن خشـب السـنط ، وأخذ يخطب في الناس:

- يـا قـومي كلكـم أنـا ، وأنـا كلكـم ، حيـاتي حيـاتكم ، وموتـي مـوت لكـم ، أنـا أبـو أطفـالكم ، وزوج نسـائكم ، وصـاحب الكلمة فيكم ، ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب.

ثم سار ، وسارت الجماهير وراءه تهرول وتولول .

ولكـن واحـدا منـهم ظـل فـي مكانـه ، وشـاهد علـى مسـيرة ألـف فرسخ إعصارا يأكل الخضر والناشف ، فصاح:

- اللهم لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه.

وضاع صوته في الميدان الكبير.

(الحكاية الثانية)
" الولي"

خـرج عـادل إمـام مـن البحـر مختـالا يجـر ذيلـه ، وجلـس وحده في كبرياء فوق الكرة الأرضية يهز رجليه.

مللت هذا الإعلان الذي يتكرر كل أمسية عن مسرحيته " الزعيم" ، وسحبت نفسي مبكرا نحو الفراش.

وجاءني الزعيم في المنام يصيح :

- هل من أخلاق القرية أن تتركني وحيدا وتنام .

فقلت له:

- ولكن الناس في قريتي لا يدخنون البايب ، ولا يلبسون الردنجوت ، ولا يهزون أرجلهم في وجوه الناس ، أشار إلى ضريح الولي القائم هناك ، وأخذ يقسم برأسه فقلت له :

- إحنا دفنينوا سوا.

بدا من نظرته أنه فهم ما أعنيه ، فاستدار راجعا .

صحت به :

- خذ بيدي لأعود معك .

صاح بي :

- كن كما أنت ، فالكرة لا تتسع لفهامتين!

(الحكاية الثالثة)

"ابن سيرين"

رأى أحد الولاة في منامه زرعا أخضر ، يحيط به من كل مكان ، فاستدعى ابن سيرين لتفسير رؤياه.

اخرج ابن سيرين المنديل ، وفتح الكتاب ، وفك السطور ، ثم سكت .

قال الوالي:

- قل .
- ولي الأمان.
- نعم .
- معناه ، ياسيدي ، انك طول عمرك بقر الله في برسيمه.

وطارت رقبة ابن سيرين.

(الحكاية الرابعة)
" أهل الكهف"

قلت له :

- عد إلى بلدك ، فالمكان ليس مكانك .

كان يقف منتصبا بجوار أقفاص الفاكهة ، ينظر أمامه باعتزاز فعرفت أنه من أهل الجنوب.

قلت له :

- عد إلى بلدك ، وسلم لي على رمسيس.

ورآني بعد شهور فصاح في :

- ليتني لم أسمعك ، عدت إلى بلدي ولم أجد رمسيس ، وجدت أبناء العم ينظرون إلي شزرا ، كأنني الغريب ، قد خرج لتوه من القبور ، فقدت بسبب نصيحتك الذكرى وحنين العودة.

(الحكاية الخامسة)
" بائعة اللبن"

ومضى يقص عليها :

- كان فيه سحابة بيضاء.
- وفوق السحابة سرير ناعم.
- وداخل السريرة ترقد امرأة جميلة.
- وحول المرأة بحيرة تتراقص.
- وعلى البحيرة يفرش القمر أشعته الفضية.

ونامت على صوته الرخيم ، ولم تستيقظ إلا وكان الرجل قد غادر المكان ، وفوق السرير بضع قطرات من حليب مسكوب.

(الحكاية السادسة)

"قابيل"

وفجأة انطلق صوت مزق السكون ، وخرت يمامة نحو الأرض ، وسالت الدماء ، وخرج من الأدغال رجل عار إلا من شراشيب ، أسرع نحو اليمامة ، فصل رأسها ، ثم اختفى في الظلام.

ورأيت فيما يرى النائم كأنني في امتحان ، أمسكت بالقلم فوجدته مكسورا ، نظرت إلى الورقة فوجدتها مهترئة ، أسرعت نحو الباب وجدته موصودا ، شاهدت أخي يقهقه شامتا ، وجهت إليه بعض السهام ، تكسرت على كرشه .

استيقظت ، وكان الظلام كثيفا ، والكون كالجثة الهامدة ، لا نفس ولا نأمة ، وزعق صوت أشد نكرا من صوت الغراب ، وصاح :لأقتلنك.

وهوت صاعقة ، فابتلعت كل شئ ، وصار الأخضر يابسا.

(الحكاية السابعة)

" لقمان"

قال لقمان لابنه وهو يعظه :

وظل يقول ويقول ، ثم نظر أمامه فلم يجد أمامه أحدا.

حينئذ لملم لقمان أوراقه وانصرف .

يقول الراوي عبدالحميد ابراهيم:

ولما غضب ، ياسادة ياكرام ، لقمان بن عاد وغادر المكان مزمجرا ، أمسكت به ، وتشبثت بثيابه ، وقلت له :

- قل ، فأنا مصغ لأمثالك ، ومنتبه لأقوالك .

ولكنه تفرس في مليا ، وأزاحني بعيدا ، وهو يقول :

- أنت مين طظ فيك ، وفي حكاويك.

ثم انصرف وقد كبرت سنه ، وشاخت نسوره السبعة ، وباخت حكاياتي السبع ، فكأن كل حكاية مرتبطة بنسر من نسوره ، ولكل أجل كتاب ، ولكل نسر ميقات.

فصل في الإيمان

قال لقمان لابنه وهو يعظه:

- اعلم هداك الله ، إن الإيمان ركنان : قلب وعقل .

فهذا الظالم لا ينقصه عقل ، ولكنه دون قلب .

وهذا المنافق لا ينقصه عقل ، ولكنه دون قلب .

وهذا الطفل الصغير لا ينقصه قلب ، ولكنه دون عقل .

وهذه الجماهير الغفيرة ، لا تنقصها الفطرة ، ولكنها دون عقل .

يابني :

- إذا أراد الله أن يرفع الإيمان عن أمة ، رفع عن عقولها الجوهر ، وأبقى في قلوبها المظهر .

قال الابن لأبيه يستزيده:

- وهل الإيمان ينقص ويزيد ، ياأبت؟

- نعم ينقص حتى يتلاشى ، وقديما قالوا : " الحاكم الغشيم كالثور البهيم " ويزيد حتى يبلغ الكمال ، وقديما قالوا : " إذا اجتمع في أمة قلب حاكم وعقل محكوم ، فتحت لها أبواب السماء ، واستجيب منها الدعاء "!!

قال الابن لأبيه لقمان ، يريد أن يصرفه عن لغة عصرية وخيمة العواقب ، إلى لغة قديمة أمينة الجوانب:

- يا أبت ، إن أهل السنة والجماعة يقولون.....

ولم يتم كلامه ، فقد ارتفع الآذان في كل مكان ، فحمد لقمان الله على أن نجاه من جدل هذا الغلام ، واستغرق في صلاته ، وهو يستشعر حلاوة الإيمان.

سليمان والنملة

قالت نملة :

- يأيها النمل ! ادخلوا مساكنكم ، ليحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون.

فتبسم سليمان ، وقال :

- رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك ، واني من المسلمين.

وقال لقمان لابنه وهو يعظه:

- شكر النعمة يابني هو مقام الأنبياء ، ولولا هذا المقام لتجبر سليمان ، وداس النملة ، وداس من حولها .

وقال الابن لأبيه لقمان :

- اذكر بالأمس حديثك عن قارون الذي لم يشكر النعمة وخرج على قومه في زينته ، وتجبر وتكبر . فخسف الله به وبداره الأرض.

وقال لقمان لابنه يستزيده :

- كان قارون فردا واحدا ، فأصبح اليوم يملأ الدنيا . انظر حولك تجد ألف قارون وقارون ، كلهم يكفرون بالنعمة ، وكلهم يتوهون عن طريق الأنبياء.

قال الابن يكمل حديث لقمان :

- وكلهم تنتظرهم عاقبة مثل عاقبة قارون أو أشد.

أحس لقمان بالرضا ، وبأن ابنه قد استوعب الدرس تماما ، فانخرط في صلاته ، وأطال سجوده واسترسل في دعائه . حتى جاءه الهاتف بأن قد استجيبت دعوتك ، فارفع رأسك واشكر ربك.

سليمان ودابة الأرض

" فلما قضينا عليه الموت ، ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين".

وظل سليمان يحكم الجن وهو ميت على عصاه . وظل الجن مسخرين بأمره . ولكن دابة الأرض نخرت عصاه فسقط سليمان ميتا ، وانكشفت الحقيقة أمام الجن .

وأخذ لقمان يشرح لابنه أسرار هذه الآية الكريمة من سورة سبأ ، ثم التفت إليه وقال :

- ما بال قومك قد أصبحوا أقل شأنا من الدودة . الجثث المحنطة تملأ عليهم كل مكان ، تأمرهم وتسخرهم ، لعل الله يهيئ لهم دودة تفضح أمر تلك الجثث المحنطة ، وتنقذ الناس من العذاب المهين .

ولكن الابن قاطعه قائلا :

- لا تقل هذا يا أبتي ، أخشى لو أن الله استجاب لدعائك لحلت عليهم لعنة تسمى " لعنة الدودة " ، فيقول التاريخ : هؤلاء القوم قد أنقذتهم دودة.

ادع الله يا أبتي بأن ينفخ في هؤلاء القوم ، وأن يقوموا بما قامت به الدودة ، حينئذ يذكرهم التاريخ ، كما ذكر من قبل دابة الأرض.

قال لقمان :

- آمين.

ثم أخذ لقمان يتلو على مسامع ابنه قول الله تعالى في سورة يس :

(قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم).

سليمان والقمر

ظل سليمان آلاف السنين ميتا ، يستند على عصاه ، يحكم الشرق والغرب ، ويتحكم في الإنس والجن ، حتى كشفت أمره دودة تأكل منسأته فخر صريعا.

وظل القمر ملايين السنين يشع الضوء ، ويلهم الشعراء والعشاق ، حتى اكتشف أمره ، وتبين أنه بارد ، ملئ بالحفر والأخاديد ، يسرق نوره من الشمس.

قال الابن لأبيه لقمان يستوعظه :

- ما بال القوم يجأرون بالدعاء ، ولا تفتح لهم أبواب السماء ، نراهم في كل مسجد ، وعقب كل صلاة يدعون بالنصر على الأعداء ، ولكن الأعداء يزاحمون عليهم الديار .

قال لقمان:

- لأنهم يدعون ، ولا يقومون بحق الدعاء .
- وما هو حق الدعاء؟
- أن تجاهد ، وتتخذ من الدعاء عونا ، أما أن تقعد ثم تدعو ، فذلك خداع للنفس ، هل سمعت قصة ذلك العبد الذي كان يجلس في ظل الكعبة ، وقد اقسم ألا يشرب إلا من ماء زمزم ، فرآه العبد الصالح ، وقال له : كأنك تعبد زمزم دون رب زمزم !
- وما علاقة تلك القصة بما نحن فيه؟

عندئذ تناهى إليه صوت من السماء يتلو:

(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله . لا يستوون عند الله . والله لا يهدي القوم الظالمين).

قال لقمان لابنه وهو يعظه :

- لقد قالتها السماء ، وكأنك لم تسمع هذه الآية من قبل .

ثم سكت قليلا وأضاف:

- ليس مهما أن تكون خادما للحرمين ، ولكن المهم أن تجاهد من أجل الحرمين ، وليس مهما أن تجأر بالدعاء ، ولكن المهم أن تقتحم الأبواب على الأعداء .

وتذكر قصة سليمان وحكاية القمر ، فدعا الله ألا يعجل بالفضيحة.

حتى أنت يا لقمان؟!

قال لقمان لابنه وهو يعظه :

- كما تكونون يولى عليكم ، وكما ....

ثم سكت ، فقد قرأ في عيني ما كنت أود أن أخفيه .

منذ قليل سمعت صديقي من الخليج ، يروي لي نكتة سمعها من غلام صغير ، نقر على زجاج سيارته وهو واقف في الإشارة ، وألقى إليه بنكتة عن البخيل الذي مات أبوه فبكى عليه بعين واحدة ، أسر إليه الغلام بهذه النكتة ثم مد إليه يده يستجديه. كان صديقي من الخليج مازال يقهقه ، وانتظر أن أشاركه قهقهته ، ولكني لم أقهقه!

اجتاحتني الذكريات ، وأعادتني إلى نكت زمان ، نكتة عن عبدالناصر .. فقد سأل أحد وزرائه عما يملك ... فأجاب " الستر" ، فأمر بتأميم الستر! وثانية عن عبدالناصر أيضا ... فقد قرأ إعلانا عن فيلم " الثورة على السفينة بونتي" فصاح بأعلى صوته : نحن نؤيد الثورة على السفينة بونتي!.

وثالثة عن السادات .. فقد كان يسير على طريق عبدالناصر ولكن ب"أستيكة" ورابعة عن السادات أيضا ... فقد كان يطلب من سائقه أن يعطي إشارة شمالا ثم يسير يمينا ...وخامسة...

وهنا صحوت من الذكريات وقلت للقمان...استحثه على الحديث:

- كانت النكتة سلاحا ... فصارت استجداء .

قال لقمان وهو يعاود الحديث:

- كما تكونون يولى عليكم ، وكما...

ثم سكت من جديد...

قلت له أستحثه على الحديث:

- كانت الناس تقول ، فأصبحت لا تقول!

حينئذ لملم لقمان أوراقه وانصرف وأنا أقول له :

- حتى أنت يا لقمان؟

ولم يسمع لقمان صوت ، فقد ضاع في ردهات الغرفة واختلط بحفيف الخفافيش!.

الابن يعظ

قال الابن لأبيه يعظه :

- لقد قلت ما قلت ، وقد سمعت ما سمعت ، والآن جاء دوري لكي أقول وأنت تسمع .

فرح الأب بلهجة ابنه ، وأحس أن وعظه قد أثمر.

كان الأب من قبل يعظ ، والابن يستمع ويستوعب .

كان الأب يقول ، والابن يسأل ويحاور.

والآن جاء دور الابن لكي يقول ويعظ.

حينئذ اطمأن قلب لقمان ، وآوى إلى فراشه ، يبحث عن الراحة ، ويستدعي النوم.

وصاح الديك ، ولاح الصباح.

أنا الدكر

كان أبي وأعمامي وأهل قريتي ، يتحدثون بإعجاب شديد عن الدكر ، ويروون نوادره . فهو قد يدهم البيوت فجأة ، ويسوق أهلها إلى السجن ، وهو قد يعاقب على أدنى هفوة ، حتى لو تبول أحدهم في الطريق فانه يفرض عليه الغرامة ويدفعه فورا ، ول أن حمارا تبول في الطريق فانه يعاقب صاحبه فورا.

تعلقت بهذه الشخصية ن التي بدت لي كأنها الحاكم بأمر الله ، واستقصيت أخبارها ، حتى عرفت أنه المأمور الجديد لمركز الأقصر .

والتقيت بالدكر في مراحل كثيرة من حياتي ، مرة أجده في " الشيخ مجلى " الذي يقرا القرآن لأطفال القرية كان شديدا قاسيا ، يجلد الأطفال بالفلكة ، ويضع النواة في أذن أحدهم ، أعجب به الفلاحون ، وأسلموه أولادهم وهم يقولون : اكسر لهم ضلعا ونحن سنكثر لهم الآخر .

والتقيت بالدكر في صورة " الشيخ عبدالقوي " وهو الأستاذ الضرير ، الذي كان يدرس لنا علم التوحيد في المعهد الديني بقنا وكان عنيفا وقاسيا وذا صوت أجش ، وكان الفصل في حصته منضبطا لا تسمع فيه صوتا ، لو رميت الإبرة لسمعت رنينها .

وحين جئت إلى القاهرة ، التقيت بصورة الدكر ممثلة في عبدالناصر ، كان يبدو طويلا وشامخا ، يدفع يده والناس تمر تحتها يرفع صوته عاليا والناس تهتف له ، ويقول لهم : أنا المسئول عنكم ، سأوظف أبناءكم ، وأزوج بناتكم ، وأوفر لكم لقمة العيش .

وحين أصبحت مسئولا عن مؤسسة حكومية ، قررت أن أكون أنا الدكر ، واتخذت مظهر الجاد وتقطب الوجه ، ورسمت تكشيرة على جبهتي ، وأصبح وجهي كالغربال المشدود ، يخلو من المشاعر ، وأصبحت أملك كل شئ في المؤسسة ن فالقرار قراري ، وأعرف في الهندسة والكهرباء والحسابات ، وأصدر أوامري ، وعلى الجميع أن ينفذوا ، فأنا الدكر وغيري لا شئ ، وأنا الواحد وغيري أصفار.

واستمرأت اللعبة لأنني وجدت الناس يصفقون ويهتفون ، ويتحدثون عني بإعجاب شديد ويروون نوادري .

وكلما تماديت في اللعبة تمادوا هم في التصفيق والهتاف .

الجبرتي الصغير

اسمي عبدالله ، وكنيتي أبوالعيون ن لقبوني بالجبرتي الصغير ، تمييزا لي عن جدي الجبرتي الكبير .

كان جدي رحمه الله ذا موهبة كبيرة ، في استقصاء الحوادث ، وتتبع الأخبار ، ورصد الشخصيات داخل المجتمعات ، وهو الذي أرخ للحملة الفرنسية على مصر ، وأبرز دور المقاومة الشعبية ، التي عجلت برحيل الحملة الفرنسية ، وهو الذي فصل أحداث الاغتيال الذي قام به الشاب الأزهري سليمان الحلبي ، وأدى إلى مقتل القائد الفرنسي.

وقد ورثت عن جدي موهبته في استقصاء الأحداث ورصد الشخصيات . وأنا الآن أقوم بالتأريخ لثورة ١٩٥٢ م والتي انتهت إلى نكسة ١٩٦٧ م .

إن نكسة ١٩٦٧ أفرزت الكثير من الشخصيات القلقة والمتفسخة . وفيما يلي أرصد نماذج من تلك الشخصيات ، انقلها من الواقع الخارجي ، وأكاد أسميها وأعنيها لولا خشية الإحراج وجرح المشاعر .

١

هو من جيل الثورة ، وتعلم مجانا في مدارسها وجامعاتها، كان أبوه يعمل عسكريا في إحدى المدن الصغيرة بصعيد مصر . كان يجهز الطعام للضباط ويقدمه إليهم ويحمل ما فضل منه إلى أهله وأولاده .

جد الرجل واجتهد ، حتى استطاع أن يوصل ابنه إلى الجامعة ، فكان الابن شديد الطموح ، ولكنه لم يكن ذا مواهب حقيقية فسلك الطرق الملتوية .

وكان له قدرة فائقة على كسب عطف الآخرين ، يعرف رغبة من هو أمامه فيحققه له ، إن كان يريد مالا أعطاه ، وان كان يريد خمرا قدمها له ، حتى ول كانت زوجته فانه يقدمها عن طيب خاطر .

وقد أدته هذه الطريقة إلى التعيين في الجامعة ، ترقى حتى أصبح عميدا لإحدى الكليات .

كان يرضيه وهو في منصبه أن يجلس مع الضباط في حرس الكلية ، فكان يجد لذة كبيرة في أن يسامرهم ويلتقي بهم بعد العمل .

كان كريما إلى حد السرف والبذخ يقيم الولائم ، ويرسل الهدايا ، ويبدو في مظهر الرجل ذي الأصول الثرية امتدت يده إلى أموال الدولة ، فحكم عليه بالسجن المؤبد وفر إلى أمريكا .

ادعى في أمريكا أنه جاء هاربا من المسلمين الذي يريدون اغتياله ، لأنه ينوي اعتناق المسيحية ، فاستقبلوه كما يستقبلون الرجل المستنير .

ولا يزال صاحبنا يعيش في الغربة ، دون أهل ولا وطن.

٢

هو من جيل الستينيات ، تعلم مجانا في مدارسها وجامعاتها ، كان لقيطا يعيش في ملجأ بلا أب ولا أم . تعلم والتحق بالجامعة وجد وحفظ وذاكر وكان الأول وتم تعيينه في هيئة التدريس بالجامعة .

كان ذكيا جد الذكاء وشاعرا كثير المطالعة ، لكنه كان فاسد القلب ، فانحرف ذكاؤه ولم يستثمر مواهبه ، كان يكره كل من حوله ، ويحاول أن يحطم من هو فوقه . إن رأى رجلا ناجحا أو سعيدا أو ذا أصول ، فانه يكيد له بلا سبب ،

وكان يجد في ذلك سعادة لا تعادلها سعادة ، وقد عانيت منه شخصيا وأنا أستاذه ، فقد آلمه كثيرا أن يراني عميدا للكلية ، فكاد لي ، ولجا إلى أخس الطرق والوسائل ، يشكوني مرة إلى النيابة ، والى الجهاز الإداري مرة ، ويسرق أوراق الامتحان مرة ، وحين فشلت مؤامراته ، واكتشفت ألاعيبه ، جاءني إلى البيت ، وقال لي في ذلة : سامحني أنا مثل ابنك.

كان فاسد القلب ، وقد انعكس ذلك على وجهه فبدا قبيحا منفرا مجعدا ، حتى لقبه زملاؤه بالشيطان ، وتحاشوه ، وعاش منبوذا بلا أصدقاء وبلا أخوال وبلا أعمام .

٣

كان في العقد الأول من عمره حين قامت الثورة ، وتعلم مجانا في مدارسها وجامعاتها .

كانت أمه تبيع الطعمية ، وأبوه يبيع الشاي للعمال الذين يبنون العمارات .

جد الرجل واجتهد حتى دفع بابنه إلى الجامعة ، وجد الابن واجتهد ، حتى أصبح أستاذا بالجامعة .

كان ذا مواهب عديدة فهو حلو اللسان ، يجيد الكلام والحوار والمناورة ، ناعم الصوت ، يتسلل إلى قلب محدثه ، وصاحب حضور شديد .

ولكن ظاهره غير باطنه ، فهو في داخله يحمل شرا دفينا ، لا يتسامح مع من يخالفه ، قد يبدو في الظاهر أليفا ، ولكنه في الحقيقة يصبر على حمل الضغينة ، ويتحسس الفرصة لكي ينقض على فريسته ، التي قد تنخدع بطلاوة لسانه فتأمنه ولا تخشى غدره .

أدته مواهبه إلى أن يتبوأ أكبر منصب في وزارة الثقافة وأن يصبح مسئولا عن المثقفين .

طبق ما يحدث في عالم السياسة على ما يحدث في عالم الأدب ، فكان يذل نفسه أمام الكبار ، ويستذل من هو تحته من الصغار ، وكان يكيل بمكيالين يستخدم ذهب المعز لأوليائه فيمنحهم الجوائز والمناصب ، ويستخدم سيف المعز لمن لا يطيعه فيحرمه من الجوائز ، ويحجب عنه الأضواء .

كان يجد لذة كبرى في التسلط ، وقد نجحت سياسته واجتمع حوله بطانة كثيرة من المنافقين والمداحين ، حتى وقع في وهم أنه المثقف الأول في مصر ، وأنه المسئول الوحيد عن أمور المثقفين وعاش في غرور لم يستطع أن يشفى منه ، لأنه لم يستطع أن يسمع صوت ضميره أو صوت الآخر .

لم يحتمل جسده ولا سنه ذلك التباين الشديد بين الظاهر والباطن ، فوقع فريسة للأمراض ، وأصابته جلطة في المخ اهتمت به الحكومة ، وزاره جمع كبير من أصحاب المصالح والحاجات حتى شفي .

خرج من مرضه ولم يخرج من أوهامه ، كتب أول ما كتب عن حب الناس له ، وخيل إليه أن الناس زارته حبا له ، وضاعت عليه الفرصة ولم يكتشف الحقيقة ولم يطهر المرض قلبه ولم تنزل عليه السكينة سكينة الإيمان ، فيرتاح ، ويتخلص من داء النفاق ويصبح ظاهره كباطنه فيهدأ قلبه ويخلد باله وتخف علته .

٤

هو من جيل الثورة ، وتعلم في مدارسها وجامعاتها.

كانت أمه تبيع الفجل في إحدى الحارات ، وجدت واجتهدت حتى علمته ، وجد هو واجتهد حتى أصبح عضوا في هيئة التدريس بالجامعة .

أرسلته الحكومة في بعثة إلى بريطانيا وعاد فيها بعد سنين حاملا في يده رسالة الدكتوراه .

كان أول ما فعله عقب عودته ، أن ترك المدينة التي تسكن فيها أمه حتى لا تذكره بماضيه ، ونزح إلى القاهرة وتزوج وعاش فيها بلا أم ولا أهل .

٥

هو من جيل الستينيات ، وتعلم في مدارسها وجامعاتها .

كان أبوه يعمل أجيرا باليومية في أراضي الملاك وجد واجتهد حتى علم ابنه وجد الابن واجتهد حتى أصبح أستاذا بالجامعة .

أصابه الكبرياء ، فكان يمشي منتفخ الصدر ، شامخ الأنف ، يضع سلسلة في عنقه ، يدخن السيجار أثناء محاضراته ، ويتكلم من طرف لسانه .

ساءت سمعته وتوالت مغامراته مع الطالبات ، ووصلت سيرته إلى الإدارة ورجال الأمن ، ولكنهم أخفوا كل ذلك حتى لا يسيئوا إلى سمعة أستاذ الجامعة ، ولا يزال يتبختر ويضع السيجارة على جانب فمه .

٦

كان يعيش في قرية نائية في صعيد مصر ، انفصل أبوه عن أمه ، وتزوج الأب وتزوجت الأم أيضا ، وقامت الجدة بتربيته .

نزح إلى أسوان ، والتحق بمدارسها ، وعمل حمالا في محطة السكك الحديدية ، ثم التحق بالجامعة ، وتخرج فيها بتقديرات عالية لأنه يجيد الحفظ والاستظهار .

كان همه المال بالدرجة الأولى ، فكان يتجسس على أساتذته وزملائه نظير ما يدفعونه له ، ونظير أن يوصوا عليه الأساتذة . دفعته تقديراته أن يعين في السعودية ، وهناك كان لا يتورع عن أي شئ ، حتى يحصل على المال ولو عن طريق الاستجداء .

تقرب من الأساتذة المصريين عن طريق المداهنة والخدمات وقضاء المصالح ، حتى حصل على الماجستير والدكتوراه ، وتوسط له رجال الأمن حتى أصبح عضوا في هيئة التدريس بالجامعة .

لم يتورع عن فعل شئ في الجامعة ، يبيع الامتحانات ، ويأخذ الرشاوى ، وينافق أصحاب السلطة والجاه .

ولا يزال يمارس دوره في ظل حماية رجال الأمن والحكومة .

******

لملم الجبرتي الصغير أوراقه ، وهم بالانصراف ولكن نظرة من شاب غريب بين طلابه استوقفته . وهو يعرف هذه النظرة تماما ، فقط جربها من قبل مع زائر الفجر . انزعج فؤاده ، وسأل الله السلامة واللطف ، واستعاذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر زائر الفجر إذا الفجر وجب .

الصقر والطفل

١

مزق السكون صوت طلق ناري هز أرجاء القرية . تهامس الناس بأن " حسين أبو خليل " قتل عجبان الغفير ، لكي يثبت للحكومة أن العمدة لا يستطيع أن يحافظ على الأمن في القرية ، فيوقفونه عن عمل ، ويرفعون التليفون منه إلى شيخ البلد .

كان الوقت وقت ظهيرة ، والشمس تسلط أشعتها الساخنة على التراب ، فيتحول إلى جمرات متقدة ، ولجأت الحيات والصراصير والجعارين إلى جحورها ، وانقض الصقر على أرنب الجيران فابتلعه ، وقرر الصغير أن يكون قويا مثل الصقر ، أو مثل العمدة ، أو مثل حسين أبوخليل ، يقف الناس له إجلالا واحتراما ، ورسم الصغير تكشيرة كبيرة على وجهه ، وتصنع صفات القوة والجبروت .

٢

قالت له :

- إني أحبك .
- تكلف الابتسام ، وقال لنفسه : الحب ضعف ، وأنا قوي مثل الصقر .

وتزوجها ، وبنى بها دون أن يقبلها .

٣

ترامى إلى أذنيه شهقة طفله الأول ، وهو يستقبل الحياة ، فأجهش بالبكاء وأحس بدموع باردة تلطف وجنتيه .
قال له أخوه :

- سأقول لها أنك تبكي .
- أجاب : قل لها وماذا في الأمر !

أقبل على زوجه وقبلها ، وكانت هي القبلة الأولى منذ أن تزوجها .

الوقت وقت أصيل والنسائم خفيفة تلطف الشرفة ، نظر إلى الحديقة فرأى وردة بيضاء ، تحوم حولها فراشات بأشرعة بيضاء ورقيقة ، ففاضت نفسه ، وخرج إلى الشارع ، يوزع ابتساماته على كل من يعرفه .

باتعة

باتعة هي أختي لأبي رحمه الله ، كانت سوداء وناشفة ولا تلفت نظر الرجال ، لم تذق في حياتها طعم السعادة ولو ساعة من نهار . كانت أمها من (بيت بطلان) وهي عائلة مشهورة بالأمراض العصبية ، التي أدت ببعضهم إلى الجنون ، وببعضهم الآخر إلى الإغراق في التصوف وحلقات الذكر والموالد . ورثت الأم المرض العصبي من عائلتها ، فاعتزلها الناس وخافوا أن يقتربوا منها . كانت أمي تحذرنا منها ، وتقول لنا أنها تخطف الأطفال وتأكلهم . أما شقيقها حمودة فقد ساح في الأرض ، وبحث عنه أبي كثيرا ولم يعثر له على أثر ، وكان الأهالي من بلدتنا يأتون من رحلة الحج ويقولون لأبي أنه شاهدوا حمودة في الحرم يحمل قربة من ماء زمزم يسقي بها الحجيج ، وبعد أن رآهم زاغ عنهم ، وذهب بعيدا ، وكنت فخورا بسماع هذه الأخبار .

تزوجت باتعة من ابن عمها خليفة الأمين ، ولكنه أهملها وهجرها ، وترك القرية وسكن في مدينة الأقصر . ثم كانت الكارثة ، فقد تزوج خليفة من وهيبة الحلبية ، وهي " غازية " ترقص في الموالد والطبول . كانت وهيبة اشد سوادا من باتعة ولكنها استطاعت أن تسيطر على خليفة وتجعله كالعجينة في يدها ، وذلك لأسباب كنا نجهلها ونحن صغار .

كانت باتعة تسهر الليل كله في شهر رمضان ، على أمل أن تجد طاقة النور في ليلة القدر ، وحدثتنا ذات ليلة أنها رأت نورا يشق السماء من أولها إلى آخرها ، ولكنها اندهشت ولم تستطع أن تقول الدعاء فضاعت فرصتها .

كانت وصية باتعة في آخر حياتها ، أن جنازتها تخرج بالطبل والمزمار البلدي ، فهي لم تذق طعم السعادة في حياتها فلا أقل من أن تذوقها في جنازتها .

طموح

كانت أمنيتي في صباي أن أرى اسمي منشورا في الصحف ، ولو في صفحة الحوادث .

في تلك الفترة كانت الصحف تنشر أحداث حريق القاهرة عام ١٩٥١ ، فرأيت في إحدى الصحف صورة لمحمد البكري يمسك به رجال الشرطة لأنه من مثيري الشغب ، كان محمد البكري بلدياتي وفي مثل سني ، فحسدته وتمنيت أن أكون مكانه تنشر الصحف أخباري .

وفي تلك الفترة أيضا تقدم أخي قاسم لانتخابات البرلمان ضد مرشح حزب الوفد وكان يومها في السلطة ، فلفق له ابراهيم فرج سكرتير حزب الوفد تهمة دخل بسببها السجن ، وكانت الصحف تنشر أخبار هذه التهمة وتتحدث عن ابن العمدة ، وكنت سعيدا بهذه الأخبار ، أتابعها وكأنني أتابع أخبار " أبوزيد الهلالي" .

وحين كبرت كتبت في الصحف والمجلات ونشر اسمي في المؤتمرات والندوات ، وكنت سعيدا بالصحف التي تتحدث عني بصفتي أديبا وناقدا، وكان هذا الحديث يرضي حاجة قديمة في نفسي ، ولولاه لأصبحت مجرما تتابع صفحات الحوادث أخباري باهتمام شديد .

الزعيم

اندفع إلى خشبة المسرح وقف في المنتصف استقبل الجماهير وصاح :

- يدخل عليكم الآن زعيمنا الخالد .

وقف كل من في القاعة بحركة تلقائية ، وكأنهم لولب قفز إلى أعلى،أيديهم على صدورهم ، وأعينهم مسبلة نحو الأرض .

انتظروا طويلا ولم يدخل الزعيم ، حينئذ حطوا على المقاعد ، والتصقوا بالخشب ، لا يعلقون ولا يتكلمون ولا يملون .

اندفع للمرة الثانية نحو خشبة المسرح ، وقف في المنتصف ، استقبل الجماهير وصاح :

- يدخل عليكم الآن زعيمنا الخالد .

وقف كل من في القاعة بحركة تلقائية، وكأنهم لولب قفز إلى أعلى،أيديهم على صدورهم ، وأعينهم مسبلة نحو الأرض .

انتظروا طويلا ولم يدخل الزعيم ، حينئذ حطوا على المقاعد ، والتصقوا بالخشب ، لا يعلقون ولا يتكلمون ولا يملون .

اندفع للمرة الثالثة نحو خشبة المسرح ، وقف في المنتصف ، استقبل الجماهير وصاح :

- يدخل عليكم الآن زعيمنا الخالد .

وقف كل من في القاعة بحركة تلقائية، وكأنهم لولب قفز إلى أعلى.

ودخل الزعيم هذه المرة ، كان قصيرا قميئا ، عيناه من بلاستيك ، ووجهه مجدور وكأنه غربال من جلد مخروم ،

استقبل الجماهير وقال كلاما غامضا وممطوطا ، ثم أخرج لسانه . كان لسانه طويلا ومسحوبا وكأنه لسان أفعى ، بخ على الحاضرين سائلا ، وصل إلى وجه كل من في القاعة فاستكانوا واستناموا .

تراجع الزعيم إلى الوراء ، وأخذ يتراجع القهقرى ، ووجهه لا يزال نحو القاعة، حتى وصل إلى الحائط خلفه ، فتحول إلى ملصق كبير مثبت بالحائط ، وجهه نحو الجمهور ويبخ بين الحين والحين هذا السائل والجميع لا يعلقون ولا يتكلمون ولا يملون .

ساد القاعة صمت رهيب وطويل لا يقطعه سوى خشخشة الصراصير ، تسكن شقوق المسرح .

الأشراف

كان أبي وهو الشيخ الكبير ، ينحني على يد الصغير من (الأشراف) يقبلها ويستمد منها البركة .

وكذلك كان يفعل أعمامي ، وبقية الأهالي من قريتي والقرى المجاورة .

والأشراف هم عائلة تنتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم يختلفون عن الفلاحين ، لا يعملون ولا يزرعون ولا يتاجرون ، ولكنهم يركبون الخيول المطهمة ، ويأكلون أفخر الأنواع ، وكلما رآهم فلاح ينزل من ركوبته وينحني ويقبل الأيادي .

وكان الفلاح حين يستلم حصاد أرضه ، يجنب الكيلة الأولى من زرعه ويرسلها إلى الأشراف لكي تنزل البركة على محصوله ، وحينما تأتي ليلة (السيد أحمد) وهي الليلة التي توافق مولد هذا القطب الكبير من الأشراف ، يقبل الفلاحون على منازل الأشراف ومعهم الغلال والدواجن والثمار ، ويسلمونها في غبطة وسرور إلى عائلة الأشراف.

وحين دخلت الأزهر الشريف ، وقرأت القرآن والسنة والسيرة النبوية ، والفقه وتعلمت أن العزة لله جميعا ، وأن الله أكبر من كل إنسان ، وان العالم لا ينبغي أن ينحني لأحد إلا لله عز وجل .

بعدها قررت ألا أقبل يد أحد مهما كان وضعه ، ولم يكن القرار سهلا ، فأنا أتحدى تيارا عاما ،فأبي وأعمامي وكل الفلاحين ، ينحنون للأشراف ويقبلون أياديهم التماسا للبركة .

ولكن الله منحني طاقة نفسية تظهر وقت اللزوم ومن ثم صممت على موقفي ، ولم أقبل يد أحد من رجال الأشراف .

قال لي السيد حمودة وهو واحد من كبار الأشراف :

- أريد أن أزوجك بنتي .
- قلت له : ولكنكم لا تزوجون بناتكم إلا رجلا من الأشراف مثلكم .
- قال لي : ولكن مثلك نشرف بأن نصاهره .

أحسست بالثقة في قراري ، وبأن العلم نسب من لا نسب له .

الغرفة الغامضة

كلما دخلت الكلية أو خرجت منها ، كنت أشاهد في نهاية الممر غرفة مقفلة وعلى بابها عسكري يحرسها ، وكانت هذه الغرفة لا تفتح إلا مرة واحدة في العام ، حين يأتي مفتش الجهاز المركزي ، يفتحها له الموظف المختص ، ويدخلان معا ، ويجلسان حول المكتب الوحيد بالغرفة ، يقلبان بعض الأوراق ، ويتحاوران بالإشارات والكلمات الخافتة ، ثم يوقع المفتش على الأوراق ، ويعطيه للموظف المختص وينصرف ، يقفل الموظف الحجرة ، ويتبادل بعض الكلمات مع العسكري الواقف أمام بابها ، ويذهب إلى مكتبه ويودع المفتاح في مكان أمين ، ويظل جالسا على مكتبه يراقب من بعيد الحجرة ، ويلاحظ العسكري حتى لا يتوانى في أداء واجبه .

شغلني أمر هذه الغرفة الغامضة ، وحين أصبحت عميدا للكلية ، وكان همي الأول أن اكشف أسرار هذه الغرفة ، فسألت عنها وقيل إنها في عهدة رجب أفندي الموظف بأرشيف الكلية .

استدعيت رجب أفندي ، وسألته عن هذه الغرفة ، فقال لي لا علم لي عما بداخل هذه الغرفة ، وكل ما حدث أن العميد السابق استدعاه ، وأعطاه مفتاح الحجرة ، وقال له إن كل ما في داخل الغرفة في عهدته ، فوقعت على ذلك بالاستلام وأصبحت مسئولا عن كل الكراتين داخل الغرفة وعن العسكري الذي يحرسها .

أثارت هذه الغرفة فضولي ، وشكلت لجنة بجردها والكشف عن محتوياتها ، وفتحت الكراتين كلها ، وكانت المفاجأة أنها تحوي مجموعة من أجهزة الكمبيوتر ، أرسلتها

مفوضية المعونة الأمريكية ، كهدايا لتدريب الموظفين على أعمال الحاسب الآلي ، ولكن العميد السابق أودع كل هذه الكراتين عهدة في يد رجب أفندي وأقام عليها الشاويش همام لكي يحرسها ويحرس ما بداخلها .

ضحكت كثيرا في نفسي ، ولكنني قررت ألا أقبل أي هدية من ألمعونة الأمريكية ، حتى لا أحتاج إلى غرفة أخرى ، والى موظف مختص والى عسكري يقف على بابها ، وحتى أوفر على الجهاز المركزي متاعبه في متابعة الكراتين المقفلة .

صورة الرئيس

صاح عسكري البوابة :

-بروجي ! اضرب .

وانطلق النفير وتعالت هتافات العساكر ، وارتج المكان استعدادا لتشريف السيد مدير الأمن .

وكان مدير الأمن يجلس في مكتبه وقال لنفسه : أنا هنا في مكتبي ، وقد تمت التشريفة لي منذ ساعتين فلماذا هذه التشريفة الجديدة ، هل هناك مدير أمن آخر غيري .أو أن الوزير جاء بنفسه ليزور المديرية .

قفز مدير الأمن من مكتبه ، ووقف أمام المرآة يصلح من ملابسه ، ومسح على نياشينه وربط أزرار بدلته ، وهرع إلى الخارج ليستقبل الضيف الكبير .

وكانت المفاجأة فلم يكن هناك ضيف ولا مدير ولا وزير ، ولكن هناك خطأ وقع فيه عسكري البوابة . فقد لمح رجلا من رجال المطافئ ، رآه لأول مرة في حياته ، وكان الرجل يلبس بدلة بيضاء أنيقة ولامعة ، وعلى كتفه أشرطة حمراء وفوق رأسه خوذة تعكس ضوء الشمس ، فظنه ضيفا كبيرا ، وصاح : بروجي ! اضرب . وانطلق النفير وارتج المكان ، وهرب رجل المطافئ خوفا من المسئولية والعقوبة .

أنب مدير الأمن عسكري البوابة ، وأحاله إلى مجلس تأديب ، وعاد إلى مكانه مزهوا بنفسه ، مطمئنا على وظيفته .

دخل مدير الأمن حجرته ، وجلس على مكتبه ، والتصق بكرسيه ، وقال لنفسه الحمد لله ، ليس هناك مدير أمن آخر غيري .

نظر مدير الأمن إلى صورة رئيس الجمهورية معلقة فوق رأسه ، فاستمد منها السلطة والقوة واضمر في نفسه الطاعة والولاء .

الطاغية

اليوم الأول : قتل حسين أبو خليل عجبان غفير القرية الذي يحرس حارة النصارى .

اليوم الثاني : قتل حسين أبوخليل سالم نجار القرية الذي يصلح السواقي والنوارج .

اليوم الثالث : قتل حسين أبوخليل حصاوي تاجر البقالة الذي يصرف لنا بطاقات التموين من زيت وشاي وسكر .

وأصبح حسين أبوخليل بعد ذلك مهابا في القرية ، يقفون له احتراما إذا أقبل ، ويفسحون أمامه الطريق إذا مشى ، ويقدمون له الهدايا والإتاوات .

قال لي حكواتي القرية : أتعرف أن حسين أبوخليل كان في صباه شاذا يأتيه شباب القرية في الليالي المظلمة ، فلما كبر وانصرف عنه الشباب تحول إلى مجرم يفزع القرية ويقتل الضعفاء .

قلت له : اعرف ذلك تماما وأعرف أيضا أن كل طاغية ، مهما علا وارتفع يخفي وراءه سوءة يريد أن يداريها ، وعقدة ضعف يريد أن يخفيها.

وعلت في سماء القرية طلقة نارية ، اخترقت حجب الظلام فتداخلت النعاج في حظيرتها ، وجرت الفراخ إلى عشها ، وانكمشت الأطفال في فراشها ، أما الرجال فقد أخذوا يتمتمون ويقولون : لا حول ولا قوة إلا بالله .

دائرة الانتقام

انطلقت الزغاريد وكأنها الصريخ ، ودقت الدفوف ، وكأنها طبول الحرب ،وأقبلت النسوة متشحات بالسواد كالغربان ، يرقصن ويقفزن ، وزفت الصغيرة الجميلة إلى العجوز المجدور .

أصبح الأب سعيدا ، فقد وفى لابن أخيه بما وعد ، وأصبح الزوج أكثر سعادة ،فقد التهم عروسه ، وأسال منها الدماء ، واثبت رجولته ، أما الصغيرة الجميلة ، فقد اقعت في ركن قصي كالكلبة الجريحة ، ولكنها أضمرت داخلها شيئا .

كانت الطبيعة ثائرة ، والرياح جامحة ، تخبط النوافذ والأبواب ، وتولول في أرجاء الغرفة ، وأسلمت الصغيرة نفسها لأول شاب يراودها .

ازدادت العاصفة هياجا ، واهتزت النخيل يمينا وشمالا وترنحت الأشجار ، وارتفع صوت البومة وقال الابن لأبيه لقمان بصوت يحاول به أن يخترق عربدة العاصفة :

- متى تهدأ العاصفة ؟

قال لقمان بصوت عميق ، كأنه يأتي من قرار بعيد .

- لن تهدأ فقد انتهك الانسان ناموس الله ، ووأد نفسا بريئة بغير نفس ، وانتقم من الصغيرة الجميلة ، فانتقمت منه ، واتسعت دائرة الانتقام كالسرطان يلتهم جيلا بأكمله ، عاش ومات دون أن يعرف ، إن كان أبوه هو هذا الشاب المجهول أو ذلك العجوز المجدور .

ازدات العاصفة جنونا ، وانطلقت الشهب تخترق السماء وتراقصت الشياطين ، وارتفع الغبار في كل مكان ، يزكم الأنوف ويدمي الحلوق . شعر الابن بالخوف والقشعريرة ،

واحتمى بصدر أبيه ، ورفع لقمان يديه يتضرع إلى الله ويقول :

- اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه .

وظل لقمان يدعو ويلح في الدعاء ، حتى استبان له ضوء صغير يخترق الظلام ، كان الضوء ساطعا وملحا ، فأدرك لقمان أن الله قد استجاب دعاءه ، وسحب ابنه نحو المسجد ليؤديا صلاة الشكر .

البدلة الجديدة

وقف أمام المرآة ، أخذ يتحسس بدلته الجديدة ، كانت ناعمة ولونها أزرق ، وتحتها قميص ابيض ناصع ، وفوقه كرافتة ايطالي ، تحرك يمنة ويسرة وفي زوايا مختلفة حتى اطمأن على صورته ، ورضى عن نفسه ، ثم التقط حقيبته السانسونايت ، وأسرع نحو عمله سعيدا ومغتبطا .

قال له زميله في العمل " ايه الحلاوة دي يا باشا "

وقال له زميل آخر " والله انت أجمل من عمر الشريف أيام شبابه "

أما زميلته فقد رمقته من بعيد بنظرة إعجاب .

قال يحادث نفسه وهو في طريق عودته إلى منزله : " سأعمل بعد الظهر " وأضع القرش على القرش حتى أشتري بدلة جديدة للصيف ، وبذلك أصبح باشا في الشتاء وباشا في الصيف .

سار في طريقه مختالا ، وهو يؤرجح حقيبته الجميلة ولكن رجلا رآه من بعيد ، فظنه باشا حقيقيا ، وظن الحقيبة ممتلئة بالدولارات والعملات الصعبة .

اقترب منه الرجل ووجه إليه لكمة في أم رأسه ، ثم التقط الحقيبة وولى هاربا .

أفاق أفندينا من غيبوبته وتحامل على نفسه ، حتى وصل إلى داره . وهناك خلع البدلة الجديدة وما تحتها ، وطوح بالجميع بعيدا وعاد إلى ملابسه القديمة والعادية .

ووقف أمام المرآة وخلع على وجهه علامات الذل والانكسار ، استجاب وجهه لهذه العلامات ، لأنه قد اعتادها منذ زمن بعيد .

لوحة لبيكاسو

كانا يمشيان في الحديقة ، الفتى يمسك بيد الفتاة ، وقد علت الابتسامة على وجه كل منهما .

نظر إليهما . أطال النظر . انتقلت البهجة إلى وجهه .

ولكنه لم ينس نفسه كثيرا ، فقد تذكر أن زوجه بجواره ، تصنع الوقار ، وأشاح بوجهه إلى الجانب الآخر ، تذكر لوحة لبيكاسو . نصفها أبيض ونصفها أسود .

قال وتقول

قال أبي : عين الشيخ بغدادي تفلق الحجر . رآني مرة وأنا صحيح معاف ، فارتعش بدني ، وبردت أطرافي .

وحين يأتي الشيخ بغدادي أبو عامر ، يستقبله والدي بترحاب شديد ، ويطلب له الشاي الأخضر .

وقالت أمي ، وهي تتحسس أولادها : نظر مرة الشيخ بغدادي إلى مهرنا الصغير ، فوقع على الأرض ميتا .

وحينما يأتي الشيخ بغدادي إلى دارنا ، تعد له أمي الشاي الأخضر بالنعناع ، وترسله إلى أبي لكي يقدمه له .

وقال أخي : نظر الشيخ بغدادي إلي وأنا اجري ، فتعثرت قدماي ووقعت على الأرض . وحين يأتي الشيخ بغدادي إلينا يقابله باحترام شديد.

ومات أبي وماتت أمي ، ومات أخي ، ومات الشيخ بغدادي . ومازال أهل القرية يجلسون على المصطبة يتذاكرون نوادره ، وحين يأتي أحد من أبنائه أو من أقاربه ، فإنهم يصمتون ويترحمون على الشيخ بغدادي . ومازال الظلام يخيم على القرية كل مساء ، ومازالت الضفادع تنق، والصراصير تئز .

والبادي أظلم

قالت لها : إن زيدا يحبها . وقالت له : إن سيدتها هندا تحبه أيضا.

وقامت بدور الوسيط ، تنقل الرسائل بينهما ، وتمهد للخلوة لهما في غفلة من الزوج .

كانت تفعل ذلك بلذة وحماسة ، لا تنتظر أجرا ولا شكرا ، سوى أن ترد الصفعة لذلك السيد ، الذي طالما قال لها أنت خادمة ، وعلى الخادم أن يطيع .

نظرة

نظر أبي إلى سيدنا ، نظرة كلها عتب واستعطاف ، وقال له :

- كده برضه يا شيخ محمد ، ده جزائي ؟

كان أبي قد شاخ وأنهكه المرض ، فرقد على السرير لا يبارحه.

قال الأهل : إن به مسا من الجن . وأرسلوا إلى سيدنا الشيخ محمد أبو إسماعيل ليخرج الجن من جسد أبي .

كان سيدنا مقربا من أبي ، يكلفه بتحفيظ القرآن لأبنائه وأبناء أخيه ، وبتلاوته في ليالي رمضان ، وبقراءة عدية ياسين لكي يزول ما يطرأ من مصائب ، ثم ينفحه المال ، ويقدم له اللحوم وأطايب الطعام.

جاء سيدنا ، وأخذ يتلو القرآن ، ثم طلب من الأهل عصا من جريد النخل الأخضر ، وأخذ يضرب أبي على جميع جسده لكي يطرد الجن .

لم يفهم أبي شيئا ، فقد ضاعت ذاكرته بسبب التقدم في العمر، وظن أن الشيخ محمد يضربه بلا سبب ، فنظر إليه نظرة كلها عتب واستعطاف ، وقال له:

- كده برضه يا شيخ محمد ، ده جزائي .

ثم أغمى عليه إغماءته الأخيرة .

الهجانة

اختلت أمور الأمن في القرية ، وكثرت جرائم القتل والسرقة وإحراق الزروع ، وخطف الحيوانات .

ورأت الحكومة أن ترميهم بالهجانة ، لكي يستتب الأمن ، وتعود الأمور إلى نصابها .

جاء الهجانة على جمالهم الصفراء ، ويحملون في أيديهم الكرابيج المدببة والرفيعة . حطوا في ديوان العمدة ، وفرضوا عليه ثلاث وجبات دسمة يوميا ، مع شراء الدخان وتقديم العلف لدوابهم .

استجاب العمدة لذلك ، ورجع إلى مشايخ البلد يطلب منهم المساعدة المالية ، ورجع المشايخ إلى الفلاحين ، يأخذون منهم الأموال اللازمة للهجانة.

وإذا غربت الشمس يخرج الهجانة إلى الدروب والأزقة ، يضربون الفلاحين بالكرابيج ويأمرونهم بالدخول إلى منازلهم ، ويقولون قولتهم المشهورة " خش بيتك وسكر بابك ".

كان الهجانة مجموعة من السودانيين ، اختارتهم الحكومة الانجليزية ودربتهم على تأديب الفلاحين بقسوة ، وورثت الحكومة المصرية منهم ذلك وأبقت عليهم.

كنت يومها صغير السن وقد نفرت من هؤلاء الهجانة الذين يقبعون في ديوان العمدة ، كانت أصواتهم خشنة وملامحهم قاسية ، ينهرون الصغار ولا يحترمون الكبار . وقد ظلت هذه العقدة ملازمة لي حتى وقت قريب ، فكنت أكره كل ما هو سوداني أسود اللون ، غليظ الشفاه له ثلاث شرطات على صدغه .

وذات يوم مع غروب الشمس ، خرج الهجانة إلى دروب القرية وضربوا ست الحسن في موضع حساس من جسدها وأمام زوجها حمدان لم يتكلم الزوج ، ولكنه أضمر في نفسه شيئا .

وفي الصباح وجد الأهالي جثة العسكري الذي ضرب ست الحسن طافية على سطح الترعة .

تم التحقيق ، ولزم الأهالي الصمت ، وقيدت الحادثة ضد مجهول .

ولكن بعدها تسرب الخوف إلى قلوب الهجانة ، ولزموا ديوان العمدة حتى غادروا القرية نهائيا .

أصوات

تناهت إليه أصوات تأتيه من أسف الدار ، وهو على فراش الموت ، كانت الأصوات لأبنائه ، وهم يتشاجرون حول ميراثه.

تململ على فراشه ، وأغفى إغفاءة أخيرة .

أتته الأصوات من جديد ، كانت هذه المرة مرتفعة ، استيقظ من رقدته ، وقال كلاما غاضبا ، وأغفى إغفاءته الأخيرة.

تعب الأبناء من الشجار ، ثم انصرفوا دون أن يمروا على غرفته ، ليعرفوا أحي هو أم ميت .

دراسة عن
تأصيل القصة القصيرة

تأصيل القصة القصيرة

تتخذ فكرة تأصيل القصة القصيرة معنيين : أولهما ذلك المعنى الذي يرصد الشكل التقليدي للقصة القصيرة ، والذي استوردناه من أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، وهو يتابع تطور ذلك الشكل بداية من الترجمة والتعريب والتلخيص والتقليد ، ووصولا إلى مرحلة تأصيل هذا الشكل في التربة العربية ، وتأليف القصص القصيرة من كتاب عرب ، يستمدون تجاربهم من الواقع العربي ، ويصبونها في ذلك الشكل الذي تأثروا به بعد الاتصال بأوروبا ، ويسمونه مرة بالشكل التقليدي ، ومرة أخرى بالشكل الواقعي ، وكلتا التسميتين صحيحة ،فهو تقليدي لأنه هكذا يسمونه في أوروبا بصفة أنه يخضع للتقاليد الأدبية والثقافية في التاريخ الأدبي لأوروبا ، وهو أيضا واقعي لأنه يستوحي الواقع ، ويستمد مادته من الحياة حوله ، تحت عنوان ما يسمونه بالواقعية النقدية في أوروبا الغربية أو الواقعية الاشتراكية في روسيا .

وهذا المعنى الأول هو الذي ارتضاه معظم الدارسين لتاريخ الفن القصصي في العالم العربي ، والذين يحصرون دراساتهم لتطور الفن القصصي في الفترة التي اتصل فيها العالم العربي بالحضارة الأوروبية في العصر الحديث ، فنشأ

عن ذلك الاتصال معرفة الفن القصصي في صورته الحديثة . ويمكن أن أشير من بابا المثال إلى الكتاب الذي ألفه الدكتور شكري عياد تحت عنوان " القصة القصيرة في مصر : دراسة في تأصيل فن أدبي " ، فهو يتابع تطور القصة القصيرة في شكلها الأوروبي حتى وصلت إلى مرحلة التأصيل ، كما يدل ذلك العنوان الفرعي للكتاب .

أما المعنى الآخر فهو لا يقف عند القرنين الأخيرين في تأريخه للقصة القصيرة ، بل انه يوسع نظرته ، ويمتد إلى التراث القصصي عند العرب ، ابتداء من العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث ، فيجعل التأصيل عنده يقوم على دراسة الأشكال التراثية المتنوعة ، ثم إحيائها في شكل عصري له جذوره التاريخية ونبضاته المعاصرة وهذا المعنى هو الذي ارتضيته في هذه الدراسة ، وذلك من خلال تحليلي لمجموعتي القصصية تحت عنوان " يقول الراوي" ،ونقدي لها من منظور التأصيل في معناه الأخير ، الذي يفرض علي مضمونا وشكلا يتداخلان ، فيعطيان خصوصية للشكل الأصيل في القصة القصيرة ، وهذه الخصوصية تختلف في مصطلحاتها ولغتها عما كان يريده نقاد الشكل الواقعي منذ بداية القرن العشرين .

ولا يعني هذا ألبته أنني ألفت هذه المجموعة تطبيقا لفكرتي عن التأصيل بمعناه الشامل ، فان هذا لم يرد بخاطري أبدا ، لأنه مخالف لطبيعة التجربة الأدبية التي تقوم على مفهوم الحرية . إنني كتبت هذه القصص من باب إحساسي ومعايشتي للتجربة ، دون أن ترد على خاطري فكرة التأصيل ، ودون أن تخضع لأي قيد سوى تقاليد التجربة الأدبية ، ثم وجدتها تختلف عما كتبه القصاص الذين يعتنقون الواقعية النقدية أو الواقعية الاشتراكية ، ولم يكن هذا

من باب الصدفة ، فقد كان يخضع لخلفية ثقافية ومعاشرة للفن القصصي بأشكاله المختلفة ، وقد بدأت المعايشة أكاديميا منذ رسالتي للماجستير (١٩٦٥) التي كانت عن قصص الحب عند العرب ، والتي استخلصت فيها شكلا فنيا لهذه القصص. واختلطت هذه البداية مع دراستي للشكل التقليدي للقصة القصيرة ، وتمثل في دراستي الثانية للدكتوراه تحت عنوان " القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث من أوائل القرن العشرين إلى قيام الحرب العالمية الثانية " ، ثم تداخلت هذه المعارف بعضها ببعض ، وشكلت عقليتي عن شكل أصيل يجمع بين الشكل التراثي والشكل الأوروبي ويضيف إليهما ، وكانت النتيجة إبداعيا مجموعة " يقول الراوي" ، التي لم تأت تطبيقا حرفيا لأفكاري المسبقة عن فكرة التأصيل ، وإنما أتت نتيجة طبيعة تكويني الثقافي ، الذي افرز تلك المجموعة في ملامحها الخاصة ، وتأتي هذه الدراسة لتلتزم بهذه الملامح ، سواء في صورتها المضمونية أو الشكلية ، وتشرحها للقارئ ، وقد رأيت أن أقوم أنا شخصيا بهذا الشرح والتحليل ، لأنني أعرف بدخائل هذه القصص وبسياقاتها التاريخية والأدبية ، ولأن نقاد هذا الشكل قليلون ، فهو شكل جديد وان كان يضرب بجذور تاريخية ، ومعظم نقاد الفن القصصي ينطلقون من خلال مصطلحات الشكل التقليدي ، التي عرفناها في أوائل القرن العشرين ونحن نطالع الأشكال القصصية التي تحاكي الواقع الخارجي ، وهي مصطلحات تختلف تمام الاختلاف عن المصطلحات التي تستخدمها هذه الدراسة ، وهي تحلل مجموعة " يقول الراوي".

في أوائل القرن العشرين ، أصدر محمود طاهر لاشين مجموعة قصصية تحت عنوان " يحكى أن " . وفي أوائل

القرن الحادي والعشرين تصدر مجموعتي " يقول الراوي ". وكل عنوان من هذين العنوانين يشير إلى مرحلة بارزة في تاريخ القصة القصيرة في مصر .

فقد صدرت مجموعة لاشين في وقت ازدهرت فيه الواقعية النقدية وخاصة في مجال الفن القصصي ، وهي واقعية تحكي عن الواقع إذا أردنا أن نقترب من عنوان لاشين ، فهي تقلد الواقع وتنقل منه ، والمؤلف يحاول أن يتخفى وراء أحداث القصة ، وهو لا يبرز له صوت ، ولا يحاول أن يتدخل في مصائر الشخصيات ، فهي تسير حسب منطقها الخاص ،وإذا تدخل المؤلف في مصير شخصية من الشخصيات ، أو حتى جعل القدر أو أية قوة عليا تتدخل في تسيير الشخصية ، فان هذا أمر معيب كما يقول النقاد ، والقارئ يندمج في الحدث وينفعل به ، وكلما حاول المؤلف أن يسيطر على القارئ ، ويجعله جزءا من أحداث القصة فان هذا يحسب في براعته الفنية كما يقول النقاد أيضا .

والقصة القصيرة في ميزان الواقعية النقدية ، يتحكم فيه التسلسل التاريخي من بداية ووسط ونهاية ، وهو أمر يتكرر بإلحاح في مسيرة القصة القصيرة ذات الشكل الواقعي و التقليدي وقد استنام المؤلف إلى تلك الحركة التاريخية ، كما يشاهدها في حياته الواقعية ، فالشمس تطلع في الصباح ، وتبلغ ذروتها في الظهر ، وتتضاءل أشعتها في الماء ، ومن هنا نراه لا يعمل ذهنه ، ولا يتوقع تغيرا في ذلك الناموس القصصي ، الذي يحاكي الناموس الكوني .

وقد فرض هذا الاتجاه الواقعي مصطلحاته الأدبية ، التي أخذ النقاد يرددونها جيلا بعد جيل ، حتى أصبحت قانونا صارما ، وذلك مثل إدماج القارئ ، وغلبة الحدث ، والبعد

عن الوصف والمباشرة ، وتدخل المؤلف ، والبداية المشوقة ، وذروة الحدث ، والنهاية الموحية .

وقد ازدهرت الواقعية النقدية في أوائل القرن العشرين بفضل مدرسة الفجر ، التي تحمست لهذا الاتجاه الجديد ، ونشرته في صحيفتها "الفجر" وشعارها الهدم والبناء ، أي هدم القديم البالي ، ومباركة الجديد الوافد ، وهي تعني بالجديد ذلك الشكل الواقعي للقصة القصيرة ، والذي عرفناه من أوروبا ، وقد عقدت هذه المدرسة المسابقات ، وشجعت المؤلفين على الكتابة ، والنقاد على تحليل القصص المنشورة ، حتى استطاعت أن تغرس هذا الشكل في البيئة العربية ، وأن تخلق جيلا يتيهون فخرا بالكتابة في هذا الشكل الجديد .

وكان من أبرز أعضاء هذه المدرسة هو محمود طاهر لاشين ، فقد أصدر مجموعتين هما " سخرية الناي" ، و " يحكى أن " . وهو في قصصه يتمسك بقواعد الاتجاه الواقعي ، فقد كان مهندسا للتنظيم ، وكان يجوب الحواري والأزقة ، ويقتبس منها شخصياته ، ففي قصته " جولة خاسرة" صور لنا شخصيات شعبية مثل الحداد والحلاق وبائعة الطرشي . وهو في قصته " سخرية الناي" أخذ يصف شخصيات شعبية مثل الرجل ذي اللبدة وغيره من شخصيات يصطادها من الواقع . وقد ذكر يحي حقي في كتابه " فجر القصة المصرية " أنه رآه في المحكمة الشرعية ، يلتمس أحداث قصته " بيت الطاعة ".

وقد مال لاشين إلى الطريقة التسلسلية التاريخية ، فنراه في قصته " رجب أفندي " يقدم بطله بطريقة تاريخية ، ويتتبع نشأته من البداية وحتى النهاية .

أما مجموعتي " يقول الراوي " فهي تختلف عن الواقعية التي سادت في أوائل القرن العشرين . إنها لا تعتمد على

عنصر المحاكاة ، ولا تلغي دور المؤلف ، وتجعل القصة تسير حسب منطقها الخاص ، والشخصيات تتحرك تلقائيا ، دون أن يبرز دور للمؤلف أو يعلو صوته ، أو يتدخل في مصائر الشخصيات . إنها تعتمد على عنصر الراوي ، كما يوحي بذلك عنوانها ، وهو عنصر يعبر عن المؤلف ، فالراوي هو المؤلف ، وكل منهما يعلو صوته ويتدخل في أحداث القصة ويتحادث مع القارئ ، ويجعله مشاركا له ، وليس متلقيا عنه ، يلقي عنانه إلى أحداث القصة ويندمج فيها .

إن هذه المجموعة هي رمز لتأصيل القصة القصيرة ، التي تتجاوز الواقعية النقدية ، وتتعامل مع التراث القصصي ، الذي يقوم بنوع خاص على عنصر الراوي ، وقد بدأ هذا الاتجاه التأصيلي مع جيل الستينيات ، وخاصة عند جمال الغيطاني الذي راد هذا الاتجاه في مجموعته القصصية " أوراق شاب عاش منذ ألف عام " وقد عمق الغيطاني هذا الاتجاه في رواياته ومجموعاته الأخرى . وأيضا ظهرت بذور هذا الاتجاه في مجموعة يحي الطاهر عبدالله ، تحت عنوان " ثلاث شجيرات تثمر برتقالا " ، ثم عمق هذا الاتجاه في مجموعته " حكايات للأمير حتى ينام ".

وعلى الرغم من هذه البدايات التي كادت تصل إلى نصف القرن ، فإنها لم تبلغ حد الظاهرة العامة ، ربما لأن المبدع لا يعي تجربته تماما ، وثقافته لا تزال تتردد بين القديم والجديد ، وربما لأن الجمهور لا يزال يتشكك ولا يثق في التجارب التي تستوحي التراث القصصي ، أمام الضغط الذي تمثله الحضارات الأوروبية ، وربما لأن النقاد العارفين بدخائل هذا الاتجاه قليلون ، ولا يزال معظم النقاد يقعون تحت سيطرة المصطلحات التي تدور حول الواقعية النقدية ،

ولا يزال معظمهم يفهمون التأصيل بمفهومه الذي يعني تأصيل الشكل التقليدي في التربة العربية .
وأمام هذه الاعتبارات ، سأقوم بتحليل مجموعة " يقول الراوي " من منظور التأصيل بمعناه العودة إلى التراث ، وخلق مصطلحات جديدة تتناسب مع التأصيل بمفهومه الثاني . وسيتم كل ذلك مع الموازنة مع الواقعية النقدية ، وذلك تحت العناوين الآتية .

*****

يقول الراوي :

يلعب الراوي دورا كبيرا في التراث القصصي ، فالمقامات تقوم أساسا على الراوي ، الذي يتابع حركات البطل ، ويسجل مغامراته والسير الشعبية تتردد مع كل حكاية ،أو مع كل ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة ، عبارة " يقول الراوي : ياسادة يا كرام ".
وترد كثيرا في التراث القصصي ، سلسلة الرواة والعنعنة ، تشبيها لها بسلسلة رواة الأحاديث النبوية . وكثير من هذه السلاسل ليست حقيقية ، وقد حاولت في دراستي للماجستير عن قصص العشاق النثرية أن أتحقق من رواتها ففشلت ، ووجدت أن بعض الرواة يقول " عن أبيه وعن أخيه " وأن بعض الرواة يختلقون أعلاما غير حقيقية ، فوصلت إلى اقتناع بأن هذه السلاسل من باب الحلية ، أو من باب الإيهام بالواقع .
فالتراث القصصي إذن يقوم على فكرة الواقعية ، وهي واقعية في مقاصدها وبنائها تختلف عن الواقعية التقليدية التي عرفها جيل الرواد وبفضل مدرسة الفجر . إن واقعية التراث القصصي تقوم على عنصر الراوي ، الذي يعني حضور

المؤلف ومحاورته مع القارئ ، وإيقاظ وعيه ، إنها واقعية تهدف إلى مشاركة القارئ ، وليست تهدف إلى محاولة إدماجه في الأحداث ، وتسليم نفسه لحركة القصة وغياب وعيه ، وكما هو الحال مع الواقعية التقليدية عند الرواد .

إن واقعية التراث القصصي واقعية تعليمية ، ومن هنا نجد المؤلف متخفيا وراء الراوي ، يلقي بتعاليمه ، ويجل أفكاره ، ويتحاور مع القارئ حولها ، ومن هنا نجد البناء الفني في التراث القصصي قد يجنح أحيانا إلى المباشرة والوصف والسرد . إنها واقعية تشبه إلى حد كبير المسرح الملحمي ، أو المسرح التعليمي عند بريخت ، الذي ألغى الحائط الرابع المتمثل في الجمهور ، فقد كان المسرح قبله يعد الجمهور حائطا رابعا ومكملا للجدران الثلاثة لأركان المسرح ، فهو يسمع ويتلقى ويصغي ، ولكنه لا يشارك في صنع الأحداث ، وجاء مسرح بريخت فهدم هذا الحائط ، وجعل الجمهور يشارك الممثلين ، وجعل الممثل ينزل إلى قاعة الجمهور ، ويتحدث معهم ، ويأخذ آراءهم ، ويجعلهم يشاركون في الأحداث وفي البناء الفني للمسرحية.

وانتقل عنصر الراوي إلى القصة القصيرة في العصر الحديث ، وخاصة عند جيل السبعينيات ، الذي بلغ به القهر حدا ، جعله لا يسكت عن الخطأ ، وجعله يخرج لسانه لكل ما هو مغلوط ، ووصل به الحد إلى المجاهرة وعلو الصوت ومن هنا وجد عنصر الراوي وسيلة للتعبير عما في داخله ، فالراوي يحمل صوت المؤلف وترتفع نبرته مع ارتفاع نبرة المؤلف ، وهذا ما يجعلنا نستسيغ ما يلجأ إليه كثير من أدباء هذا الجيل من ميل إلى الأدب التسجيلي وأدب الوثائق .

والراوي قد يكون بضمير المتكلم ، أو بضمير الغائب ، أو مسندا إلى علم مثل قالت شهرزاد وقال لقمان ، أو مسندا

إلى معرف بأل مثل يقول الراوي أو مسندا إلى نكرة مثل قال راو ، أو معرفا بالإضافة مثل يقول أحد الرواة ، أو غير ذلك من مصطلحات تهدف في مجملها إلى التعبير عن صوت المؤلف، والى دعوة القارئ للمشاركة في الأحداث وصياغة النتائج .

وتأتي مجموعة " يقول الراوي" معتمدة على عنصر الراوي ومستخدمة هذه المصطلحات السابقة .

إن عنصر الراوي يتحقق في كثير من قصص هذه المجموعة ، وسأكتفي بتحليل ثلاث منها ، وهي : يقول الراوي ، عنتر وغضنفر ، الديك الأحمر .

حين نشرت القصة الأولى في صحيفة المساء ، جاءت تحت عنوان " يقول الراوي عبدالحميد ابراهيم " ، وهذا يعني أن هناك توحدا بين الراوي والمؤلف ، وأن الراوي يعكس صوت المؤلف . ومن هنا بدأت هذه القصة بعبارة " يقول الراوي : يا سادة يا كرام ، سأحكي لكم سبعا من حكايات الأولين ، تكون عبرة للآخرين ".

وبعد هذه البداية التي تأتي على لسان الراوي ، يورد المؤلف سبعا من الحكايات ، تتخذ عناوين من مفردات تراثية ، وهذه العناوين هي : قابيل ـ الخضر ـ الولي ـ ابن سيرين ـ أهل الكهف ـ لقمان .

وتتكون كل حكاية من وحدة مستقلة ، ولكنها جميعا تتآزر على رصد الحالة العامة لتاريخ مصر خلال النصف الأخير من القرن العشرين ، فمثلا حكاية " الخضر " تتحدث عن الرئيس الذي سلب من الجماهير وعيها ، وجعل يخطب في المنشية بالإسكندرية ، وأثار حماسة الجماهير ، فهرولوا وراءه إلى مصير مجهول ، ولكن واحدا من الجمهور ، رأى إعصارا مخيفا ، لم يره أحد غيره ، فتنبأ بكارثة عظيمة ،

واخذ يقول " اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه ".

ومثلا حكاية " الولي" تتحدث عن ذلك الرئيس الذي يردد عبارة أخلاق القرية ، ولكنه يدخن البايب ، ويلبس الردنجون ، ويهز رجليه في وجوه المشاهدين ، تماما مثل الإعلان الذي يجئ في التليفزيون عن مسرحية الزعيم عادل امام .

ومثلا حكاية " ابن سيرين " عن الرئيس الذي رأى في منامه زرعا أخضر عن يمينه وزرعا أخضر عن شماله ، وحين فسر له ابن سيرين الحلم ، بأنه طول عمره بقر الله في برسيمه ، طارت رقبة ابن سيرين .

وهكذا تتضافر الحكايات السبع ، على تصوير حالة الإحباط في المجتمع المصري ، وعلى الإشارة إلى عوامل هذا الإحباط ، وتنتهي قصة " يقول الراوي " نهاية تعمق من حالة الإحباط ، فان مصير شخصيات الحكايات السبع يرتبط بنسور لقمان السبعة ، وقد ماتت النسور السبعة ، في نهاية القصة ومات معها لقمان ، ومن ثم باخت الحكايات ، وانتهت إلى مصير مظلم وتعمقت المأساة .

وقد يتعدد الرواة في القصة الواحدة ، كما هو الحال في القصتين الأخيرتين : الديك الأحمر وعنتر وغضنفر . الأولى توظف النكتة الشعبية التي تروي بأن الديك الأحمر هو وحده الذي يقوم بالواجب مع الدجاجات ، أما الديوك الأخرى فهي مجرد مستشارين له ،وكلهم معطلون عن القيام بالواجب .

أما الفقرة الثانية فهي على لسان شهرزاد ، وتجئ في السياق نفسه ، وتروى فيها خبر ملك ظالم ، جمع حوله

الخصيان والطواشي ، وحين هجم التتار على الملك فتحوا لهم الباب ، وقتل الباب .

أما الفقرة الثالثة فقد جاءت على لسان الراوي نفسه يكمل به حديثه ، الذي بدأه في الفقرة الأولى ويذكر أن الديك الأحمر خرج يوما مختالا وحوله الدجاجات ، ولكن الديوك الأخرى تربصوا به وقتلوه ، ثم اقتتلوا فيما بينهم حتى فنوا جميعا ، وخلت الحظيرة من الديوك وعقمت النساء .

إن هذه الفقرات الثلاث تشكل لوحة عن الظلم والاستبداد ، وهي تكسر الزمن التاريخي ، الذي يتطور من البداية إلى النهاية ، إن الفقرة الأولى عن النكتة الشعبية ، ويقطعها بعد ذلك حديث شهرزاد عن الملك المستبد والتتار ، ثم تأتي الفقرة الثالثة وتكمل حديث الفقرة الأولى ، وتضيف إلى النكتة الشعبية أحداثا عن مصير الديك الأحمر والديوك الأخرى ، ذلك المصير الذي انتهى إلى العقم والضياع . ومن هنا جاءت اللغة مختلفة باختلاف كل فقرة ، فان لغة شهرزاد سهلة قريبة إلى لغة السير الشعبية وهي تختلف عن لغة الفقرة الأولى والثالثة .

أما قصة " عنتر وغضنفر" ، فهي تدور بين راويين يتنافسان ، يحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر ، وفي النهاية يتدخل الجمهور ليشارك في الحوار ، إنها أشبه بمسرحية قصيرة من واقع البيئة ، يشارك فيها الجمهور الممثلين ، ويسقط الحائط الرابع ، ويصبح كل من في القاعة ممثلا من الممثلين .

وهي تقوم على ثلاثة مشاهد ، يبدأ الراوي الأول فيتحدث عن القصة التاريخية التي وردت في أخبار عنترة ، فقد تنافس مع غضنفر لكي يتفوق أحدهما على الآخر ، تبارزا في ركوب الخيل فتعادلا ، وتبارزا في الضرب

فتعادلا ، وتبارزا في إنشاد الشعر فتعادلا ، وأخيرا يقترح عنترة أن يضع كل منهما إصبعه بين أسنان الآخر ويضغط عليها ، فمن قال آه أولا خسر الرهان ، أحس غضنفر بالألم فقال آه ، وانتصر عنترة وكسب الرهان.

يبدأ الراوي الثاني بنبرة افتخار ، ويضيف أحداثا جديدة إلى القصة القديمة ، ويذكر أن عنترة عاد منتصرا إلى بيته ، واستقبلته زوجته مزهوة ، وقضى معها ليلة سعيدة . أما غضنفر فعاد منكسرا واستقبلته زوجته بعبوس وأعطته ظهرها .

وهنا يتدخل واحد من الجمهور ، لكي يشعل الحماسة بين الروايين ، ويسألهما : أيكما غضنفر وأيكما عنترة ، لم يفهما السؤال ولم يستطيعا الإجابة ، فهما يمثلان أمام الجمهور ، ويأخذان الأجرة على ما يقولانه ، وخرجا من المكان وأسرعا إلى مكان آخر لكي يؤديا الأدوار نفسها .

إن القصة تنعي غياب عصر الفروسية والشهامة والحياة الحقيقية ، وترى أن المبارزة تحولت إلى تمثيلية من أجل التكسب .

وتبدو على القصة نبرة المبارزة وإثارة الحماسة ، فالراوي الثاني يقول لزميله : لقد قلت ما قلت وسمعت ما سمعت ، أما أنا . ويقول واحد من الجمهور يثير المنافسة بين الراويين : أيكما عنترة وأيكما غضنفر .

******

يقول لقمان :

هنـاك سـورة فـي القـرآن الكـريم تسـمى سـورة " لقمـان " يعـظ فيهـا لقمـان ابنــه ، ويقـدم لــه نصــائح حـول السـلوك والفضــائل والآداب والتربيــة الاجتماعيــة والأسـرية ، وهــي نصـائح يـدعو إليهـا الإسـلام ، ويحـث النـاس علـى اعتناقهـا والعمل بمقتضياتها .

وقـد ورد ذكـر لقمـان بـن عـاد فـي العصـر الجـاهلي ، وقصـته مـع نسـوره السـبعة مشـهورة ، فقـد كـان يرنـو إلـى الخلود ، وارتبط أجله بأجل نسوره السبعة ، فكان كلما يموت نسر يرثيه بشعر حزين ، يخشى فيه على نفسه من الموت والفناء .

وقد وردت قصص كثيرة حول لقمان تنسب إلى العصر الجـاهلي ، ولـه مع المرأة بنـوع خـاص تجارب مريرة ، فقد كان سيئ الظن بالنساء عامة يتهمهن بالخداع والخيانة ، حتى ابنته" صحر" لم تسلم من إيذائه ، فيحكي الرواة أن لقمان بن عاد خانته امرأة كان يسكن معها في قمة جبل ، وأدخلت غريبا في غيبته إلى فراشها ، وحين اكتشف أمرها رماها من الجبل ، وحين نزل من الجبل قابلته ابنتـه صحر وسألته عما به ، فقال لها : فأنت أيضا من النساء ، ورماها من الجبل فماتت ، وأصبح الناس يروون مثلا يقول " ما أذنبت إلا ذنب صحر " ، وهو مثل يقال للبرئ الذي يدان ظلما .

أظـن أن موقـف لقمـان مـن المـرأة ، لا يمثـل الموقـف العربـي الأصيل ، فـالمرأة العربيـة ليست بهذه الصـورة من المكر والخديعـة ، والفـارس العربـي لا ينظـر إلـى المرأة هذه النظرة المشئومة . وأظن أيضا أن هذه النظرة إلى المرأة هي من تأثير الثقافة اليهودية ، التي تسربت إلـى الجزيرة العربيـة في العصر الجاهلي ، وهي ثقافة سيئة الظن بـالمرأة ، تراهـا مسئولة عن كل خطيئة في الدنيا وحتى يوم الدين .

وقد تحدث الرواة عما يسمونه بمجلة لقمان ، وقد كانت هذه المجلة موجودة في العصر الجاهلي ، واستمر ذكر أخبارها في صدر الإسلام ثم اختفت . ولو أن باحثا جادا جمع الأخبار المتناثرة في الكتب حول لقمان ، وأصدرها في صحيفة لاستطعنا أن نأخذ صورة ولو شبه متكاملة عن مجلة لقمان .

إنني من خلال هذه الاستطراد المتعمد ، أستنتج أن هناك لقمانين ، لقمان الحكيم وهو الذي ورد اسمه في القرآن الكريم وهو شخصية حقيقية تقول الحق وتنطق بالحكمة . أما لقمان الآخر فهو لقمان بن عاد ، وهو لقمان الأساطير ، إذا تحول إلى شخصية يتقول عليها الأدباء ، ويحملونها من الخيال ما هو بعيد عن الحقيقة والتاريخ .

وقد أصدرت من قبل مجموعة قصصية تحت عنوان " قال لقمان" ، وهنا في هذه المجموعة وظفت شخصية لقمان بقصص كثيرة ، فيها من الخيال مافيها ، وفيها الكثير من الإسقاطات المعاصرة ، وفيها التعبير عن نفسية مكلومة من الواقع الخارجي . إنني في هذا التوظيف لا استخدم شخصية لقمان الحكيم ، لأنها شخصية قرآنية حقيقية ، لا تحتمل التأويل ولا التخيل ، إنني أستخدم شخصية لقمان كما وردت في الأدب والأساطير وهي شخصية خيالية ، تحتمل الإضافة والتعديل .

ورد ذكر لقمان في اثنتي عشرة قصة تضمنتها هذه المجموعة ، وهي : من عجائب الطيور ـ درس من النملة ـ الملكة والذكر ـ حكاية لها بقية ـ لقمان آخر زمان ـ يقول الراوي ـ سليمان والنملة ـ سليمان ودابة الأرض ـ سليمان والقمر ـ حتى أنت يالقمان ـ الابن يعظ ـ دائرة الانتقام .

وقد تناثرت هذه القصص في ثنايا المجموعة وفي النية ـ إن شاء الله ـ جمعها وترتيبها ، بحيث تتحول إلى رواية تتكون من قصص قصيرة ، وتقرأ مرة أخرى بصفتها رواية مكونة من وحدات مستقلة ، كما هو الحال في مقامات الحريري ، وكما هو الحال مع رواية أشعب لتوفيق الحكيم ، فقد حاكى فيها المقامات بنوع خاص وجعلها ذات بدء ونهاية ، يثوب فيها أشعب إلى رشده ، كما تاب قبله أبوزيد السروجي في مقامات الحريري.

وهذه القصص عن لقمان يمكن أن نحدد فيها بعض الصفات مثل :

١ـ السرد والوصف ، فإذا كانت الواقعية التقليدية تهتم بالحدث والموقف ، وتعتبر السرد نوعا من الجفاف لا يتفق مع الإيهام بالواقع، فان القصص التي تدور حول لقمان على عكس ذلك ، تهتم بالوصف والسرد وتعتبره أكثر قدرة على تملك الواقع .

٢ـ التعليق وتدخل المؤلف ، فإذا كانت الواقعية التقليدية تعتبر تدخل المؤلف عن طريق الحكمة أو التلخيص أو لفت النظر أمرا معيبا يتعارض مع اندماج القارئ في سيل الأحداث وترك نفسه عرضة للعملية الشعورية ، التي تشكلها الشخصيات والأحداث والموقف ، فان القصص التي تدور حول لقمان لا تؤمن بعملية الاندماج ،وتحل محلها عملية مشاركة القارئ ، وخلق نوع من الحوار ، حتى لو كان غير مباشر ، بين المؤلف والقارئ يعلو فيه صوت كل منهما ، حتى يتفقا في النهاية على مغزى القصة .

٣ـ البنية الفنية ، وسنحاول شرحها في العنوان القادم.

ونقوم الآن بتحليل بعض القصص التي دارت حول لقمان للتدليل على كل ما سبق . ونبدأ بقصة " لقمان آخر زمان" ،

لأنها تستطيع أن تقدم لنا صورة واضحة عن شخصية لقمان في الأدب والأساطير ، التي تختلف عن صورة لقمان الحكيم ، كما وردت في القرآن الكريم .

تبدأ هذه القصة والراوي يطلب من لقمان آخر زمان أن يدله على سكة السلامة ، فيشير إلى طريق يسلكها الراوي ، فتنتهي به إلى سكة الندامة ، يعود الراوي كسير الجناح ، ويهون عليه أبوه الأمر ، ويقول له إن لكل زمان لقمانه ، لقمان الحكيم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وينتهي بصاحبه إلى سكة السلامة ، أما لقمان آخر زمان فانه مضلل يخدع الجماهير ، وينتهي بهم إلى سكة الندامة .

وقصة " من عجائب الطيور" ، تقربنا من ملمح السرد وملمح التعليق معا ، فهي تبدأ ولقمان يقرأ في كتاب من عجائب الطيور ، ويحكي حكاية فيها الكثير من نغمة ألف ليلة وليلة ، وخاصة رحلات السندباد ، وفيها أيضا إحالات إلى رحلة ذي القرنين التي وردت في سورة الكهف عن طريق مفردات قرآنية ، فقد كان هناك رجلان ، أحدهما خير والآخر شرير ، ضاقا بأهليهما وعزما على الرحيل ، حتى وصل إلى قوم غريبي الأطوار ، مات ملكهم وكانت من عادتهم أن يولوا ملكا عليهم أي إنسان يحط عليه طائر غريب الشكل ، ومن الغريب أن الطائر حط على الرجل الشرير فولوه ملكا . نشر الملك الجديد الفساد في الأرض ، فظلم أهلها واستباح دماءهم وأعراضهم . قال له الرجل الخير قولا ينبهه إلى ظلمه ، فيجيبه الشرير بأن الله لو أراد بهم خيرا لحط الطائر العجيب عليك ، وحينئذ تصبح أنت الملك العادل . وتنتهي عند ذلك القراءة السردية التي يقوم بها لقمان عن عجائب الطيور ، ويبدأ التعليق من ابن لقمان وهو تعليق أكثر واقعية، عن طائر عصري يسمى الانتخابات ، ويتمثل

في الجماهير التي انتخبت رئيسا ظالما ازداد ظلما ، وازدادوا هم خنوعا ، وينظر لقمان إلى السماء فيرى طيرا أبابيل أكثر سوادا وقبحا ، فيرفع يديه إلى السماء ويدعو :

" اللهم إنا نسألك أن تولي علينا من يصلح "

ولكن الابن يقول بلهجة أكثر واقعية :

" بل قل اللهم أصلح من وليت علينا".

ففي هذه القصة يجتمع السرد والتعليق في وقت واحد السرد يأتي من لقمان وهو يقرأ من عجائب الطيور ، أما التعليق فيأتي من الحوار بين لقمان وابنه ، وهو تعليق ينزع القصة من مصدرها النظري إلى واقعها العصري ، بهدف لفت الأنظار إلى الخطأ في تركيبة الواقع ، ودعوة الجماهير إلى تغير مسلكها حتى لا يتغير حالها.

وقصة " الملكة والذكر" تكشف عن انكسار حدة التطور التسلسلي للزمن التاريخي في القصة التقليدية . وقد ارتفعت ملكة النحل وتبعها الذكور ، وأخذت ترتفع والذكور وراءها ، حتى تساقطوا واحدا اثر الآخر ، ولم يبق منهم إلا أقواهم ، فلقح الملكة وسحبت عضوه ومات .

وبدلا أن يستمر الراوي ، في تتبع رحلة الملكة وعودتها إلى الخلية إذا به يقطع التسلسل ، ويدير حوارا بين لقمان وابنه ، يعترض فيه الابن على أن الطامح القوي هو الذي يموت ، فيجيبه لقمان بأنه لم يمت ، بل انه سيخلد عن طريق نسله ، الذي يأتي من الملكة .

ويعود الراوي بعد ذلك ليكمل رحلة الملكة فقد عادت إلى خليتها ، ورقدت على عرشها ، وحولها الشغالة يخدمنها ، ويرفرفن بأجنحتهن لكي يوفروا للمكلة جوا مريحا ، ويهللن في انتظار المولود الجديد.

حينئذ عاد الابن إلى رشده ، بعد أن أدرك حكمة الله ، وانفرجت أسارير الأب فقد وصل ابنه إلى اليقين ، ولم يقف عند الظاهر للعيون.

وإذا كنت قد بدأت هذا المحور ، بقصة " لقمان آخر زمان" لأن هذه القصة تحدد لنا الفرق بين لقمان الحكيم ولقمان الأدب والأساطير ، بمعنى أنها تجعل الشخصية التي يدور عليها المحور واضحة أمام القارئ دون لبس ، فإنني أنهي هذا المحور بقصة " الابن يعظ" ، لأنها تعني أن وعظ لقمان قد أثمر ، وان جيلا جديدا سوف يحمل الرسالة ، فان القصة تبدأ والابن يعظ أباه ويقول له :" لقد قلت ما قلت ، وسمعت ما سمعت ، فدعني الآن أقول وأنت تسمع " حينئذ يطمئن الأب ويأوي إلى فراشه سعيدا وينام قرير العين ، حتى ينبلج الصباح ، ويصبح الديك مبشرا بيوم جديد وجيل جديد .

البنية الفنية :

يشبه ادخار ألان بو القصة القصيرة ، في مقالته التي نشرها في دائرة المعارف البريطانية ، بأنها كالقصيدة الشعرية ، يجب أن يتحقق فيها وحدة الشعور ، فكل مفردة أو جملة أو صورة أدبية ، لا تسهم في تنمية الشعور ، فهي شئ زائد عن اللزوم لا ضرورة منه .

وإذا كان بو يصدر في ذلك عن اقتناع بالوحدة العضوية ، التي حددها أرسطو ، فان الشكل الأصيل للقصة القصيرة كما حددناه من قبل ، يصدر عن الوحدة التركيبية ، التي شرحتها من قبل في الجزء الثاني من موسوعة الوسطية العربية ، وفي فصل الأدب بالتحديد ، وهي وحدة ينتقل فيها القارئ من موضوع إلى موضوع آخر ، وهذا يعني أنه لا

يجب أن تتحقق فيها وحدة الشعور ، فكل موضوع يثير شعورا يختلف عن الشعور الآخر ، ولكن جميع هذه المشاعر ترتبط بصلة ما . ومن ثم فان الشكل الأصيل للقصة القصيرة ، يدور حول محورين هما :

١ـ تجاور الموضوعات ، وانتقال القارئ من موضوع إلى آخر عن طريق الاستطراد أو المناسبة .وهذا يشبه البنية الفنية للقصيدة الجاهلية ، التي ألقت بظلالها على قصيدة الشعر التقليدي حتى اليوم . فالشاعر يبدأ بالغزل ووصف ديار الأحبة ، ثم ينتقل إلى وصف الرحلة ووصف الصحراء وما فيها من حيوانات ، حتى يصل إلى موضوعه المطلوب والذي قد يكون مدحا لعظيم يرجو نواله .

٢ـ تتكون القصة القصيرة ذات الشكل الأصيل من مقدمة وموضوع وخاتمة كما نرى في المقامات ، فمثلا في مقامات الحريري تبدأ كل مقامة بلقاء بين الراوي وهو الحارث بن همام ، وبين البطل وهو أبوزيد السروجي . ثم ينتقل الراوي إلى الموضوع الأصلي ، وهو موضوع يختلف من مقامة إلى أخرى . حتى يصل في النهاية اذ يزوغ البطل من الراوي ، الذي يبحث عنه حتى يجده ، وبعد ذلك تبدأ المقامة التالية ، وهكذا في حركة دائبة حتى نهاية المقامات .

وسأضرب مثالا للملمح الأول ، يتمثل في قصة " يوسف الرابع" . وسأضرب أيضا مثالا للملمح الثاني ، يتمثل في قصة الجبرتي الصغير .

إن قصة " يوسف الرابع" تتكون من أربعة أجزاء هي يوسف الأول ـ يوسف الثاني ـ يوسف الثالث ـ يوسف الرابع . وكل جزء مستقل عن الآخر ، ويثير شعورا يختلف عن الشعور الآخر ، ولكن جميع الأجزاء تتفق في أنها تقدم صورة عن تاريخ مصر في العصر الحديث ، إن يوسف

الأول ينتمي إلى جيل ثورة ١٩١٩ ، وهو جيل منتم يعرف أهدافه ، فنرى يوسف الأول يقف تحت تمثال سعد زغلول ويرنو نحو النيل ، ويسمع الجماهير تردد الأناشيد الوطنية ، ثم تندفع إلى النيل ، وتصير موجة من أمواجه تعرف طريقها نحو الشمال . وان يوسف الثاني ينتمي إلى جيل الستينيات من القرن العشرين ، فنراه بعد نكسة ١٩٦٧ يتظاهر في ميدان التحرير ، وتحت النصب الحجري الذي يخلو من التمثال ، ولكن الأمن يحاصرهم من كل جهة ، فيدورون حول أنفسهم ، ويحاول يوسف الثاني أن يحرك يديه وأن يهتف ، ولكن ضربة جاءت على رأسه لم يفق منها إلا وهو في سجن القناطر الخيرية . أما يوسف الثالث فهو ينتمي إلى جيل السبعينيات الذي فقد كل انتماء ، فليس له علاقة خارجية بأي شئ ، وهو بدون هدف وبدون انتماء لا يعرف شيئا عن خاله يوسف الأول ، ولا شيئا عن عمه يوسف الثاني ، وكل ما يهمه هو الحديث في المحمول ومشاهدة الفيديو كليب ، أما يوسف الرابع فهو نتيجة حتمية لكل ما سبق ، انه أصم وأبكم يتمتم بحروف لا معنى لها .

إن كل جزء من الأجزاء الأربعة مستقل بنفسه ولكن يربطها جميعا أنها تقدم صورة لتاريخ مصر خلال القرن العشرين ، وإنها تنتمي إلى عائلة واحدة ، كل جيل يرمز إلى فترة من تاريخ مصر الحديث .

وتنتهي هذه القصة بنهاية متفائلة ، فان أم يوسف الرابع تنظر إلى صورة أبيها يوسف الأول ، ثم تنظر إلى صورة ابنها يوسف الرابع ، فتجهش بالبكاء ، ولكنها ترى أباها يمد يديه نحوها ويربت على كتفيها ، بعدها تسمع الجماهير تندفع نحو النيل ، حتى تصير موجة من موجاته، وهي تصدح بنشيد بلادي بلادي .

أمـا قصـة "الجبرتـي الصـغير " فهـي مثـل المقامـات ، تتكون من مقدمـة وموضـوع وخاتمـة ، ففـي المقدمـة يقدم لنـا الجبرتـي الصـغير نفسـه ، فقد لقبـه بهذا اللقب ، امتيـازا عن جده الجبرتـي الكبيـر ، ويـذكر أنـه ورث عـن جده موهبـة التقصـي وقـوة الملاحظـة والتـأريخ ، مـع فـارق بينهمـا ، فالجبرتي الكبير يؤرخ لفترة الحملـة الفرنسية علـى مصـر ، ويرصد حركـة المقاومـة ، ودور الأزهر الشريف ، وتحـرك الجمـاهير احتجاجـا علـى الاسـتعمار الـدخيل حتـى خـرج الاستعمار من مصر . أما الجبرتي الصغير فهو يؤرخ لثورة ١٩٥٢ التي انتهت إلى نكسة ١٩٦٧ .

ويأتي الجبرتي الصغير إلى الموضوع ، فيرصد لنا ست حـالات ، تشـترك جميعهـا فـي أن أصـحابها ينتمـون إلـى الطبقات المعدمة ، وفي أنهم مروا فـي ظروف قاسية تركت آثارهـا علـى نفوسـهم ، فاتسـمت بالحقـد والحسـد ، وتعلمـوا بالمجان فـي مدارس الحكومـة وجامعاتهـا ، وجدوا واجتهدوا حتـى وصـلوا إلـى أن يكونـوا مـن أعضـاء هيئـة التـدريس بالجامعـات . وهنـا يكشـف الجبرتـي عن نفوسـهم المريضـة ، فقد انحرفوا وباعوا الامتحانات ، وتقربوا إلى الأمن ، ونـافقوا المسئولين وارتشـوا ، وجـاملوا البنـات ، حتـى أخلـوا بمنصـب الأستاذ الجامعي .

وهنـا نصـل إلـى الخاتمـة ، فتكشـف عـن الجـذر المسئول عن كل هذه الانحرافات ، وهو يتمثل فـي سلطة الأمـن ، فـان الجبرتـي الصغير وهو يرصـد هذه الحـالات ، لمح نظـرة من أحد الجالسين ، فعرفها على التو ، لأنه جربها كثيـرا من قبل ، وأيقن أن زائر الفجر سيأتيه هذه الليلة ، فذهب إلى منزلـه ، وأعد حقيبتـه ، وانتظر زائر الفجر إذا ما الفجر وجب .

ويلاحظ هنا أن اللغة تختلف من قصة إلى أخرى فاللغة في قصة " يوسف الرابع" شفافة ، أما اللغة في قصة " الجبرتي الصغير" فهي سردية ، تميل إلى الرصد والتسجيل والتأريخ ، وهنا نصل إلى الحديث عن اللغة في قصة هذه المجموعة .

اللغة :

هناك مقولة شاعت بين المثقفين ، تعني أن اللغة لا تعد ركنا أساسا في بناء القصة القصيرة ، فهي مجرد وسيلة خارجية ، تكتفي بنقل المعنى . وقد تلقف النقاد هذه المقولة ، وحين نقدوا القصة القصيرة ركزوا على الشخصية والموقف والحدث والصراع والعقدة والبداية والنهاية ، وتجاهلوا اللغة بصفتها عنصرا فنيا في القصة القصيرة ، وردد بعضهم الفكرة التي قالها سارتر ، في كتابه الذي ترجمه الدكتور محمد غنيمي هلال تحت عنوان " ما الأدب" ، فقد فرق بين لغة الشعر ولغة النثر ، فاللغة في الشعر مقصودة بذاتها بصفتها بناء فنيا ، يقف الشاعر دونها ليخدمها ، أما اللغة في النثر فإنها مجرد وسيلة يستخدمها الناثر ولا يخدمها، وذلك لكي يبني من خلالها أسسا فنية ، مثل الصراع والعقدة والحل .

وكان لهذا تأثيره الواضح على الأدباء المبدعين ، فقد تجاهلوا لغة القصة القصيرة ، ووقع بعضهم في الأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية ، بل إن بعضهم فضل أن يكتب باللهجة العامية ، فتستر وراء الواقعية التي تحاكي الخارج ، ووجدوا قبولا من بعض النقاد ، ولم يحسوا بالحاجة إلى تملك أدواتهم اللغوية ، وأخذوا يدافعون عن أخطائهم بحجة أنهم يقتربون من الواقع ، وحين نشر يوسف إدريس مجموعته

القصصية الأولى سنة ١٩٥٤ تحت عنوان " أرخص ليالي" لفته بعض النقاد إلى أن في العنوان خطأ ، فياء المقصور لا تثبت إذا كان مضافا إليه ، والأولى أن يقول " ارخص ليال" بدون ياء ، ولكن الدكتور إدريس استهان بهذا الخطأ ، ودافع عن ذلك بان الناس هكذا ينطقونها ، واستشرت العامية داخل هذه القصص ، بل وفي أعمال الدكتور إدريس القصصية والمسرحية ، حتى إن مسرحيته " فرافير " كتبت كلها بالعامية ، سواء أكانت في الحوار أو في السرد ، وكانت عامية هذه المسرحية مبتذلة ، تنقل مفردات الحارة وشخصيات الشوارع كما هي دون بلورة أو انتقاء .

وجاءت العامية في أوائل القرن العشرين مع ظهور الواقعية النقدية التي أتت من أوروبا ، وهي عامية تحاكي الواقع ، وتحاول أن تنقله كما هو ، وقد ظهرت العامية مع مدرسة الفجر ، وخاصة عند أحمد خيري سعيد ، الذي كان يطعم قصصه بالعامية المصرية .

ولم تكن العامية موجودة في التراث القصصي منذ العصر الجاهلي وحتى ظهور المقامات الجديدة عند المويلحي وشوقي وحافظ ابراهيم ، ولكنها ظهرت مع الاتصال بأوروبا وظهور فكرة الواقعية النقدية .

ولكن كثيرا من كبار الأدباء ، الذين لهم بصمة واضحة على الحركة الأدبية لا يتعاملون مع العامية ، فطه حسين في مقدمة "جمهورية فرحات" ينكر على إدريس تلك الواقعية التسجيلية التي تقوم بدور الحاكي الذي يسجل ما هو قائم ، ويرى أن الواقعية فنية بالدرجة الأولى ، توهم بالواقع وتكمله ، وتقدم واقعا من خلق الفنان ، تتوافر فيه الملامح الفنية . ويحي حقي في كتابه " خطوات في النقد" يدعو إلى انتقاء اللغة والعناية بالأسلوب ، ويذكر أنه يعيد القصة أكثر من

مـرة لكـي يحقـق لهـا الصـحة والسـلامة والجاذبيـة الفنيـة . ونجيب محفوظ يكتب أعماله القصصية والمسرحية بالفصحى سواء أكان ذلك في السرد أم في الحوار ، وقد استخدم أحمد شـوقي فـي مسـرحياته اللغـة الفصـحى ، ولكـن خلـق لهـا مستويات عديدة تختلف باختلاف السياق ، فمستوى الفصحى عند الطبقة العليا يختلف في مستواها عند الطبقة السفلى .

وتستخدم مجموعة " يقول الراوي" اللغة العربية فـي كل الحالات في الحوار والسرد ، وفـي الومضـة القصـيرة ، وفـي الوصف الخارجي ، وفي تيار الشعور الداخلي ، وفـي الخيـال ومـع الواقـع وفـي الحكمـة ، وعنـد الصـغير والكبيـر ، وعنـد الرجل والمرأة ، وعند الطبقـة العليـا والطبقـة السفلى ، وغيـر ذلـك مـن حـالات تـدل علـى أن الفصـحى لا تعجـز عـن شـئ ، وإنما الذين يعجزون هم الذين لا يتعبـون أنفسـهم فـي الكشـف عن أسرارها ، ويكتفون من الغنيمة بالإياب أو الرفض .

وتفطنـت هـذه المجموعـة لمستويات الفصـحى المختلفـة ، فعنـد الحـديث عـن الوقـائع التاريخيـة تسـتخدم لغـة وصـفية لا تزويق فيها ، وعند الحديث عن الشعور الداخلي تستخدم لغة مليئة بالصور والايحاءات، وعند الحديث عن الحكمة تستخدم لغة جزلة ، وعند الاقتباسات من التراث الشعبي تسـتخدم لغـة قريبـة مـن لغـة ألـف ليلـة وليلـة ، وعنـد الرجـوع إلـى القـرآن الكريم تحاول جاهدة أن تقترب من مستوى الإعجاز القرآنـي .

بـل إن اللغـة أحيانـا تكـون هـي البطـل ، فتـأتي القصـة القصيرة خالية من الصراع والحدث والشخصية والموقف ، وتكون اللغة هي البديل عن كل هذه الملامح الفنية ، كما نرى في حكايـة قابيل ، وهـي الحكايـة الأولـى ضـمن حكايـات سـبع تضـمنتها قصـة " يقـول الـراوي " ، التـي تسـمت المجموعـة

القصصية باسمها ، وكما نرى أيضا في قصة "دائرة الانتقام ".

إن حكاية قابيل هي لوحة تشكيلية رسمتها اللغة ، إنها تتكون من ثلاثة مشاهد : المشهد الأول يبدأ فيقول : " وفجأة انطلق صوت مزق السكون ، وخرت يمامة نحو الأرض ، وسالت الدماء ، وخرج من الأدغال رجل عار ، إلا من شراشيب أسرع نحو اليمامة وفصل رأسها ثم اختفى في الظلام ..".

وإذا كان المشهد الأول يسرد وقائع مزعجة وتنذر بالشر ، فان المشهد الثاني يتحول إلى كابوس خانق يبدؤه المؤلف فيقول " رأيت فيما يرى النائم كأنني في امتحان ، أمسكت بالقلم فوجدته مكسورا ، نظرت إلى الورقة فوجدتها مهترئة ، أسرعت نحو الباب وجدته موصدا "

ويأتي المشهد الثالث قصيرا وموحيا ، وكأنه قفل الختام ، الذي يلخص نتائج المشهد الأول والثاني ، انه يتكون من سطر وكلمتين ، أو بالتحديد من ثلاث جمل " وهوت صاعقة ، فابتلعت كل شئ ، وصار الأخضر يابسا ".

إن هذه المشاهد الثلاث تشير إلى حكاية قابيل مع أخيه هابيل ، ولكنها تخلو من الحدث ، وليس فيها من حكاية قابيل إلا العنوان ، وجملة تأتي في ثنايا الحلم ، الذي جاء في المشهد الثاني ، إن الجملة تقول " وزعق صوت أشد نكرا من صوت الغراب ، وصاح : لأقتلنك" ، وتقوم اللغة بعد ذلك بالتشكيل الفني لهذه المشاهد ، وتنوب عن الحدث والشخصية والحوار ، وتجسد روح الشر ، التي يرمز إليها عنوان هذه القصة " قابيل ".

أما قصة "دائرة الانتقام" ، فإنها تقوم على حدث يتكرر في كل المجتمعات العربية ، وهو عبارة عن زواج فتاة

صغيرة من رجل كبير ، وقد تعرضت الواقعية النقدية لهذا الموضوع ، وفصلت في أحداثه ، وفي وصف الشخصيات بغية التحذير من هذا الموضوع . ولكن قصة دائرة الانتقام لم تقف عند هذا الحدث ، بل اتخذته نقطة انطلاق لتشكيل ملحمة تنذر بالمأساة ، واختفى الحدث والشخصية داخل هذه الملحمة ، ولعبت اللغة دور البطل في رسم هذا الجو الملحمي ، واستغنت عن الحوار والموقف ، خلال تشكيل فني ولغوي ، تضيع فيه الملامح التقليدية الفنية .

إن القصة تبدأ بليلة الزفاف ، ولكنها ترسم لوحة وكأننا إزاء مأساة إغريقية ، يلعب فيها العجائز دور الجوقة " الكورس" .

" انطلقت الزغاريد وكأنها الصريخ ، ودقت الدفوف وكأنها طبول الحرب ، وأقبلت النسوة متشحات بالسواد كالغربان ، يرقصن ويقفزن ، وزفت الصغيرة الجميلة إلى العجوز المجدور ".

وبعد هذا المدخل ترسم اللغة الطبيعية في لوحة تهتاج فيها ، وكأننا إزاء مسرحية من مسرحيات شكسبير ، إن العاصفة تثور والرياح تولول ، وتخبط النوافذ والأبواب ، ويقول الابن لأبيه لقمان وكله خوف " متى تهدأ العاصفة " ، فيجيبه بأنها لن تهدأ ، فقد انتهك ناموس من نواميس الله في أرضه .

******

النزعة الدينية :

هناك انفصال بين الدين والأدب في مصر ، يكاد يصل إلى حد الخصام، فعلماء الدين يتهمون الأدباء بأنهم خارجون عن التقاليد ، ويدعون إلى التغريب ، ولا يرتبطون بتاريخ

الأمة ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . والأدباء يتهمون العلماء بالجمود والبعد عن العصرية ، وعدم مواكبة التطور.

وقد يكون السبب في هذا الخلاف بين الأدباء والعلماء ، يعود إلى اختلاف مرجعية كل منهما ، فعلماء الدين يعودون إلى كتب التراث ، والأدباء يعودون الى منجزات الحضارة الأوروبية الغربية ، إن المرجعية في كل تختلف فالعلماء يعودون إلى حضارة ذات طابع ديني ، أما الأدباء فإنهم يعودون إلى حضارة ذات طابع مادي وعقلي .

ومن هنا اختلفت المصطلحات والمفردات اللغوية عند العلماء ، عنها عند الأدباء ، فالعلماء يتحدثون عن سنة الله في التاريخ مقابل منطق التاريخ عند الأدباء ، وعن نواميس الله مقابل الطبيعة ، وعن القضاء والقدر مقابل الصدفة ، وعن الحكمة مقابل العبثية ، وعن الخوارق أو الكرامات مقابل السببية العقلانية .

وقد نشأ جيل جديد من الأدباء في ظل الحملة الفرنسية ، وبعوث محمد علي إلى أوروبا ، والاستعمار الانجليزي ، وتطبع أدباء هذا الجيل بالطابع الغربي ، الذي يميل إلى المادية ، ويبتعد عن النزعة الدينية ، بمفهومها الشرقي ، وكل من يقرأ الإبداعات الحديثة ، يلاحظ بعدها عن مصطلحات الحضارة العربية الإسلامية ، في الوقت الذي تقترب فيها من مصطلحات ومفردات الحضارة الأوروبية الغربية .

قد يقال أن هذا ليس صحيحا ، فالحضارة الغربية تعرف الدين ، والأدب الأوروبي ينزع إلى المثاليات . ولكن هناك فرقا بين دين ودين ، وبين مثاليات ومثاليات ، فالدين والتصوف والمثالية عند الغرب هي من نتاج البشر ، قد يصعد الإنسان من الواقع إلى المثال أو من الخاص إلى العام

، أو من المحلي إلى الإنساني ، ولكنه في كل الأحوال رجله مغروسة بالمادة ، وتصوفه تصوف عقلي بشري ، ومن ثم فان مثاليته لا تبتعد عن الواقع ، وقد يتخلص منها في أقرب لحظة ، عندما تصطدم مع مصالحه الخاصة . أما الدين بمفهومه الشرقي فهو شئ يختلف عن كل ذلك ، انه يصدر من قوة عليا ، من عالم الأمر الذي يختلف تماما عن عالم الخلق . إن الإنسان في ظل ذلك المفهوم الشرقي ، يستسلم تماما إلى الله ، دون نظر إلى نفسه وأهله وذويه وماله ، انه يقتدي في ذلك بأبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، الذي أمر بذبح ابنه فاستجاب لذلك . إن الإنسان في ظل ذلك المفهوم الديني ، يأمره نبيه أن يستشهد في سبيل الله فيستشهد ، وأن ينفق أمواله في سبيل الله فينفق ، و يأمره بان يهاجر في سبيل الله ويترك أهله ووطنه فيهاجر ، دون اعتراض أو صراع مع مصالحه الخاصة وأموره الدنيوية .

وقد يقال أيضا إن هذا المفهوم ، يفرغ الإنسان من كل بادرة ، ويحيله إلى كائن فاقد لوعيه ، يؤمر فيزعن وقد يتهيأ له شخص دجال وكاذب ، يسلبه شخصيته ويحتويه ، ويوجهه إلى أمور تضر به وبدينه . ولكن هناك فرقا بين النبي والكاذب ، وبين موسى والسامري وبين الحق والدجل . إن النبي حين يطلب من الإنسان أن يستسلم ، لا يأمره بأن يستسلم لشخصه هو ، وإنما يأمره بأن يسلم وجهه إلى الله ، والى العقيدة التي تعني مجموعة من المبادئ والمثاليات والأخلاق الإنسانية ، انه حينئذ يصبح بشرا صاحب رسالة يضحى من أجلها ، ويبيع الأهل والوطن والولد والمال والراحة في سبيل الله أن ينصر هذه المبادئ .

خلت القصة القصيرة في عمومها من ذلك الروح الديني بمفهومه الشرقي ، ومن تلك النزعة الدينية التي لا تقف عند

المسلمات العقلانية البشرية ، ولكنها تضيف إليها ناموسا آخر يتحكم فيها ، وهذا الناموس يمكن أن نسميه بالحكمة الإلهية ، التي تخرق قوانين الطبيعة والعقل ، فيأتي في الحياة الخوارق ، والأشياء الغير متوقعة .

قلت إن القصة القصيرة في مصر خلت في عمومها من النزعة الدينية بمفهومها الشرقي . وأضيف الآن أن هناك استثناءات قليلة تخرق هذا العموم ، مثل محمود البدوي في قصصه القصيرة ، الذي يوظف ما يسمى بالصدفة ويعطيها معنى من الحكمة الإلهية . التي تند عن العقول البشرية ، ومثل ألفريد فرج في مسرحياته التي تتحرك شخوصها فوق أرضية من الثقافة العربية الإسلامية. ويأتي في هذا الاتجاه عدد من القصص التي تضمنتها مجموعة " يقول الراوي" ، وأشير بالتحديد إلى أربع قصص هي : يارب ـ أقدار ـ أدعية مأثورة ـ فصل في الإيمان .

إن قصة " يارب" تحدث في ليلة القدر ، وعنوانها يشير إلى الجو الديني ، فهي تبدأ بمقدمة عند نزول الملائكة إلى القرية ، واختلاطها بالناس ،وتحركها لتسجيل الأعمال الصالحة ، إنها تطارد الشياطين في كل مكان وتسلسلهم في قيود من حديد ، وتعيش القرية في سكينة وسلام حتى مطلع الفجر .

وبعد تلك المقدمة نجد الموضوع ، ويزحف الحاج عبدالهادي نحو المسجد ، انه مصاب بشلل نصفي ، وينخرط في الصلاة ، ويطيل السجود ، ويدعو ربه بأن يهبه الصحة والقوة ، ويلح في الدعاء ، ويكرر يارب في خشوع ورجاء ، ويقوم من السجود ، ويرى نفسه يتحرك بقدرة قادر يمينا وشمالا ، ويهلل ويكبر ، ويتحلق حوله المصلون ، ويهللون ويكبرون ، تحت الثريات التي تملأ المكان نورا وإشعاعا .

وبعد ذلك الموضوع نأتي إلى الخاتمة ، ونجد الحاج عبدالهادي يطمع كثيرا في رجاء الله ورحمته ، فيقول : نسيت أن أسال ربي بأن يشفيني من داء السكر . وتسمعه الملائكة فتبتسم لطيبة قلب هذا الرجل ، وتدعو ربها بأن يستجيب له بحق ، تلك الليلة المباركة ، إن الموضوع قد يجد رفضا من أصحاب العقول العلمانية التي تفكر في المادة ، وتفصل الدين عن الحياة ، أما العقول التي تؤمن بالنزعة الدينية ، فإنها تتقبل قدرة الله على أن يشفي المريض دون دواء ، وعلى أن يحترم المسلمات العقلية .

وقصة " أقدار" يدل عنوانها على الإيمان بالقضاء والقدر ، وان حكمة الله تعلو على العقول القاصرة ، وان ما يراه الإنسان خيرا قد يكون شرا ، وان ما يراه شرا قد يكون خيرا . فقد سمع بطل القصة بأن أخاه قد قتل ، فيحمل بندقيته ويرى قاتل أخيه ويصوبها نحوه ولكن الرصاصة لا تنطلق ، ويرمي بالثانية ولكنها لا تنطلق ، وحين تنطلق الثالثة يكون الرجل قد اختفى ، ويكتشف بعد ذلك بأن أخاه لم يقتل ، ويعرف بأن ابنه قد خلط الطلقات الفاسدة بالطلقات الصالحة ، فحمد الله على هذا الخطأ ، وأدرك بان الله قدر له خيرا مما قدر لنفسه .

إن هذه القصة قد لا تجد قبولا من أصحاب النزعة العقلية التي لا تسمح بالتدخل الإلهي في سير القصة جريا وراء تحديدات آراء أرسطو لبنية المسرح . أما أصحاب النزعة الدينية فان لديهم استعدادا لقبول مثل هذه التدخلات ، ويرونها نوعا من الفيوضات الإلهية ، التي تعلن عن نفسها بين الحين والآخر ، وتكسر ما هو متوقع وتجعل العقل البشري دائما منتبها لغير المألوف .

وقصة " أدعية مأثورة" يدل عنوانها على هذا الجو الديني ، وهي تبدأ بحمد الله ، وتنتهي بالصلاة على رسول الله ، وبعد البداية تورد مواقف تعرض فيها البطل لبعض الأخطار ، ولكن الله بعنايته نجاه من هذه المواقف جميعها ، ويرفع الراوي أو البطل يده ويدعو ربه ببعض الأدعية ، متشفعا برسل الله ومتأسيا بما احتملوه من ضر ، حتى كشف الله عنهم الضر يقول الراوي في نهاية فقرات الأدعية " يارب ! يا من كنت مع محمد في عام الحزن ، وعرجت به نحو سدرة المنتهى ، وأريته من آياتك الكبرى ، وجعلته يعود واثقا من عدالتك مؤمنا بنصرتك - يا رب كن معي حين تستبد بي الأحزان ، فأصعد نحو ملكوتك ، وأتلقى من فيوضاتك ما يجعلني قويا ، لا أعبأ بالأحزان ولا بالإحباط حتى أصل إلى نهاية الطريق".

أما قصة " فصل في الإيمان" فهي تحاكي المؤلفات القديمة التي وردت في علم الكلام ، كما يدل على ذلك عنوانها ، وأيضا تعبيرات مثل : " اعلم هداك الله أن الإيمان ركنان : قلب وعقل " - " وهل الإيمان ينقص ويزيد" - " ولكن أهل السنة والجماعة يقولون " .

وهذه القصة القصيرة تدور حول موضوعين : الأول يتمثل في ركني الإيمان القلب والعقل، فلا تلغي العقل لحساب القلب ، ولا تلغي القلب لحساب العقل ، بل تجمع بينهما في وظيفة متكاملة .

والمؤلف في هذا الركن ، ينثر بعض الحكم ،التي تأتي على لسان لقمان ، ولكنها في الوقت نفسه تحمل إسقاطات معاصرة مثل " والحاكم لا ينقصه عقل ولكنه دون قلب ".

أما الركن الثاني فانه يأتي على هيئة سؤال ، يقول فيه الابن لأبيه لقمان " وهل الإيمان ينقص ويزيد " فيجيبه إجابة

فيها الكثير من الحكمة ولكنها في الوقت نفسه تحمل أيضا إسقاطات معاصرة يجيبه لقمان " نعم ينقص حتى يتلاشى وقديما قالوا (الحاكم الغشيم كالثور البهيم) ، ويزيد حتى يبلغ حد الكمال وقديما قالوا (إذا اجتمع قلب حاكم وعقل محكوم ، فتحت لهما أبواب السماء ، واستجيب لهما الدعاء) ..".

وتنتهي هذه القصة بنهاية ذات مغزى ، فقد أحس الابن بأن أباه يقترب من الحياة المعاصرة ، وهي حياة وخيمة العواقب ، فأراد أن يصرفه عن غرضه ، التي لا يؤمن جوانبها ، وقال " ولكن أهل السنة والجماعة يقولون ..". ولكنه لم يتم كلامه ، وأذن المؤذن ، وانخرط لقمان في الصلاة ، ونجا من العواقب الوخيمة بفضل ذكاء ابنه .

******

المضمون :

ركزت القصة القصيرة في مصر منذ نشأتها في أوائل القرن العشرين وحتى أوائل القرن الحادي والعشرين ركزت على قضايا المرأة في جميع جوانبها في البيت وبين الأسرة ، وفي المدرسة ومع الأساتذة ، وفي الجامعة ومع الزملاء ، وفي العمل ومع الموظفين ، وفي الحياة السياسية ومع القضايا الاجتماعية .

وقد تأثرت القصة القصيرة في ذلك بالواقعية النقدية ، التي جاءت من أوروبا تحمل معها قضاياها ، التي فرضتها على الواقع المصري ، دون اعتبار للمتغيرات الثقافية والتاريخية ، ومن ثم نرى القصة القصيرة في مصر ركزت بدرجة كبيرة على قضايا ليست لها الأولوية في الواقع

المصري ، مثل قضية المرأة التي تتاجر بجسدها ، من أجل الحفاظ على بقاء أسرتها ، وتلك هي التي يسميها سارتر بالمومس الفاضلة على حد تعبيره الجارح ، فان هذه القضية لاقت رواجا في الفن القصصي في مصر ،بسبب التأثير الأوروبي الرومانتيكي ، ومثل قضية السفور والحجاب ، التي شغلت الرأي العام والمثقفين ، ولا تزال تشغله حتى اليوم . إن التركيز على مثل هذه القضايا ، حجبت عن المثقف المصري الاهتمام بقضايا حيوية ، مثل القضايا الاقتصادية واثبات الهوية والدعوة إلى الخصوصية والى الوحدة العربية ، في مجتمع دولي تسيره التكتلات الكبيرة .

واهتمت القصة القصيرة في مصر بتقديم صورة للمرأة ، تركز على جسدها الخارجي ، فتصف ملامحها الأنثوية ، وتبرز مفاتنها الجسمية، لكي تشد القارئ إليها وقد بالغت بعض القصص في ذلك ،فاحتل وصف مفاتن المرأة الجسدية مساحة كبيرة تؤثر على فنية القصة ، مما جعلها تميل إلى التسلية والترفيه ، على حساب الاهتمام بالحركة الفنية والمتعة العقلية ، كما نرى ذلك في قصص إحسان عبدالقدوس ، وبصورة أشد في قصص أمين يوسف غراب .

ويختلف الحال في القصة القصيرة ذات الشكل الأصيل ، حقا لم تهمل المرأة تماما ، لأنها نصف المجتمع ، وإهمالها يجعل المجتمع يسير على رجل واحدة ، ولكنها لم تحولها إلى موضوع للتسلية والترفيه ، بل نظر إليها شريكا للرجل ، لها كافة الحقوق من منطلق الاعتبار الإنساني.

إن القصة القصيرة ذات الشكل الأصيل نظرت إلى الواقع من فوق ، ورصدته بعين واعية ، وأيقظت عند القارئ وعيه الإنساني ، لكي يشاركه في تحليل الواقع . ومن ثم اكتشفت قضايا ذات حيوية أكبر من قضية المرأة ، وذلك

مثل قضية التسلط ، التي استشرت في المجتمع العربي ، وعانى منها الرجل والمرأة على حد سواء ، دون اعتبار للفروق الجنسية .

وقد اهتمت مجموعة " يقول الراوي" بقضية التسلط ، وأفردت أكثر من عشر قصص مثل : من يعلق الجرس - الديك الذي باض - الحمار والجنرال - موكب الرئيس - حتى أنت يالقمان - أنا الدكر - الزعيم - صورة الرئيس - الطاغية .

تدور قضية التسلط حول طرفين لا ثالث لهما ، وهما طرف الحاكم من ناحية وطرف المحكوم من الناحية الأخرى ، وقد رصدت القصة القصيرة هذه القضية في الواقع العربي ، ووجدت أن هذا الواقع في حالة مرضية تشمل الحاكم والمحكوم معا ، فصورة الحاكم تبدو في حالة الجشع والشره والعقد النفسية ، التي تسعى إلى ابتلاع الآخر ، وضياع شخصيته الإنسانية . وصورة المحكوم تبدو في حالة من الذل والخضوع والنفاق . وكلا الصورتين طرفان مزمومان أما الحالة الوسطى التي يتعايش فيها الطرفان على قاعدة من المبادئ الإنسانية فتكاد تكون معدومة في المجتمع العربي ، ومن ثم لم تهتم بها القصة القصيرة في مصر .

إن قصة " الزعيم" ، تصلح مثالا صادقا على كل ما سبق ، يدخل رجل فجأة ويخاطب المشاهدين بصوت عال : يدخل عليكم الآن الزعيم الخالد ، فيقف المشاهدون ، ولكن الزعيم لا يدخل ، فيجلسون ويتسمرون على أماكنهم ، ويدخل الرجل مرة ثانية ، ويصيح صيحته فيقف الجالسون ، ولا يدخل الزعيم ، فيجلسون ويتسمرون . ويدخل الرجل للمرة الثالثة ، ويصيح يدخل الزعيم ، كان قصيرا وقميئا ، برطم بكلام غير معلوم ، وبخ على المشاهدين سائلا من فمه ، أفقدهم الوعي . وتراجع الزعيم إلى الخلف حتى وصل إلى

الحائط ، وتحول إلى ملصق على الجدار ، ينظر إلى المشاهدين ، ويبخ عليهم من فمه السائل ، فيفقدون الحياة وكأنهم جماد . كل شئ في القاعة ميت ، الزعيم قصير وقبيح ، والناس موتى لا حراك بهم ، ولا تسمع صوتا سوى أزيز الصراصير يأتي من جدار الغرفة العفن .

وتناولت مجموعة " يقول الراوي " قضية التسلط" من جميع جوانبها وبطرق متنوعة ، وحتى نستطيع أن نحلل هذه القصص ، يمكن أن ننطلق من ثلاث نقاط هي :

١ـ صورة المستبد .
٢ـ صورة المقهور .
٣ـ نقد قضية التسلط .

تبدأ قصة " الطاغية" بذكر الجرائم التي حدثت في القرية ، ففي اليوم الأول قتل الغفير عجبان ، وفي اليوم الثاني قتل سالم النجار ، وفي اليوم الثالث قتل حصاوي البقال . ويتهامس القرويون بأن حسين أبوخليل هو وراء كل هذه الجرائم. كان حسين ابوخليل مجرم القرية يخافه الناس ، ويقفون له إجلالا وإكبارا . ولكن حكاواتي القرية يحكي للراوي بأن حسين أبو خليل كان شاذا يحوم حوله شباب القرية ، وحين كبر انصرف عنه الشباب ، وتحول إلى مجرم يرعب الناس ، وتنتهي هذه القصة بوصف جو الرعب في القرية ، فقد انطلق الرصاص في سماء القرية ، وتداخلت النعاج ، وفر الدجاج ، واحتمى الأطفال بآبائهم ، وأغلقت النساء أبواب البيوت ، واخذ الرجال يحوقلون .

إن هذه القصة تعري نفسية المستبد، وتكشف عن الدوافع الكامنة وراء سلوكه ، فهو قد يبدو أمام الناس قويا ومرهوبا ، ولكنه في الحقيقة يخفي نفسية ضعيفة .

وقصة "صورة الرئيس" تكشف عن صورة المقهورين ، فان نفوسهم ذليلة وخاوية ،ويحلل المؤلف السلسلة التي تقيد جميع المقهورين ، فالرئيس يقهر من تحته ، ومن تحته يقهر من تحته ، وهكذا في سلسلة تشمل الجميع من الأمير حتى الخفير ، ويصور المؤلف ذلك بحادثة طريفة وساخرة . فقد انطلق البروجي عند الباب ، تعجب مدير الأمن ، فالبروجي لا ينطلق إلا له خصوصا ، وتساءل : هل هناك مدير أمن آخر ، لعله الوزير قد جاء ليمر على إدارته ، وقف أمام المرآة وأصلح هندامه ، وخرج ليستقبل الوزير . واكتشف أن البروجي قد انطلق من باب الخطأ، فان العسكري الواقف عند الباب رأى رجلا من المطافئ يلبس لباسا أبيض ونظيفا ، وعلى رأسه قبعة لامعة ، وعلى كتفيه أشرطة حمراء ، فظنه من كبار القوم ، فأطلق البروجي ، وفر رجل المطافئ . اطمأن مدير الأمن ، وأوقع على عسكري الباب أكبر الجرائم ، وسار نحو مكتبه ، وجلس على كرسيه في ثقة ، ونظر إلى صورة الرئيس المعلقة فوقه ، وأضمر في نفسه الولاء والطاعة .

أما قصة " موكب الرئيس" فهي تنقد قضية التسلط في سخرية لاذعة ، فقد وقف وزير الدخلية أمام جنوده ، يحذرهم بأن موكب الرئيس ، سيمر خلال الشارع الكبير ، ويأمرهم بالتنبه حتى لا تحدث الكارثة . استجاب الجنود لتحذيره ، وأخلوا الشارع الكبير ، واصطف العساكر على الجانبين ، أما الجمهور فقد وقف خلف العساكر ، ينتظرون طلعة الرئيس ، وهو يمر أمامهم ، ويهز ذراعه في خيلاء . ولكن كلبا أغراه الشارع المهجور فانطلق ينبح ويهز ذيله ، صفق الجمهور لهذا الكلب الشجاع ، أما رجال الأمن فقد أخفوا ضحكاتهم وراء أجهزة اللاسلكي .

إن تصفيق الجمهور وضحكات رجال الأمن ، تنتقد قضية التسلط في سخرية لاذعة ، إنهم بذلك يعبرون عن المعارضة بداخلهم ، ولكنهم يخفونها ، وقد انتهزوا هذه الفرصة لكي يعلنوها ، وكأنها النكتة يرسلها المصري لنقد الأوضاع الراهنة دون أن يتعرض للمساءلة .

******

المصدر :

استمدت القصة القصيرة في أوائل القرن العشرين مشروعيتها من الواقعية النقدية في أوروبا . وأصبح لكل أديب قرينه من أوروبا ، يتباهى به ن ويتخذه جواز مرور يدعمه في الحركة الأدبية ، فمحمود تيمور هو موباسان العرب ، وطه حسين فولتير العرب ، ونجيب محفوظ هو بلزاك العرب ، ويوسف إدريس هو تشيكوف العرب .

ونتيجة لهذا المصدر صورت القص القصيرة الواقع المصري في صورة قريبة من الحياة الأوروبية ، فالزي هو الزي الإفرنجي ، والفتاة الراقية هي التي تجيد الفرنسية ، والرجال يشربون الخمر ، ويراقصون النساء ، والمرأة تلبس الموديلات الفرنسية والايطالية . إن كل ما نشاهده من أفلام على الشاشة السينيمائية ، التي تقلد الأفلام الأوروبية ، وتتخذ من الحياة الأوروبية نموذجا تغري به الشباب ، إن كل ذلك نجده متوافقا مع صورة الحياة في الفن القصصي ، ولا عجب فان الفيلم هو قصة تمثل .

وتم كل ذلك في إيماءة إلى رفض الحياة المصرية ، فالشباب يأتي من أوروبا متأففا من أسرته وأهله ، والممثل يسخر من الفلاح والصعيدي ، والمؤلف يهاجم اللغة العربية ، ويسخر من علماء الدين ، مما أدى إلى أن الشباب أصبح يرفض واقعه ، ويتأفف من كل ما هو بلدي ومحلي ، في الوقت الذي يتحمس فيه للنموذج الأوروبي ، ويحاول أن يقلده في زيه وسلوكه .

أما الشكل الأصيل فانه قد استمد مشروعيته من التراث القصصي ، ويمكن أن نحدد ذلك في ثلاثة مسارات هي :

١ـ الشكل التاريخي .

٢ـ الشكل الشعبي .

٣ـ النكتة المصرية .

إن الشكل التاريخي ، هو الذي يستمد مادته الأولى من المصادر التاريخية والأدبية نمثل كتاب الرحلات والتاريخ والأدب ، وغير ذلك مما هو مكتوب باللغة الفصحى ، ثم يوظف مادته في إسقاطات معاصرة .

إن قصة " الحسود لا يسود " خير مثال على هذا الشكل التاريخي ، إن الملاك يأخذ الراوي في رحلة نحو الجحيم، ليريه صنوف المعذبين ، ينفتح الباب الأول ، فيرى الراوي قوما تنوشهم الرماح ، تخترق أعناقهم ثم ترتد من الجهة الأخرى ، ثم تعود سيرتها الأولى، وهكذا في عذاب مستمر يقول له الملاك : هؤلاء هم الظالمون ، والذين يرمونهم بالسهام هم المظلومون ، وكل ما زاد عدد السهام دل على كثرة الظلم ، ومن ثم على شدة العذاب .

وينفتح الباب الثاني ، فيرى الراوي قوما تتدلى ألسنتهم من أفواهم ، وعليها الصدأ والقيح والدم ، ويحوم حولها الذباب ليزيد من التهابها وآلامها . يقول له الملاك: وهؤلاء

هم الكذابون ، وكلما زاد كذبهم ، زادت مساحة ألسنتهم المسحوبة ، ومن ثم يزيد ما عليها من صدا وقيح وذباب ، وتزيد آلام هؤلاء الكذابين .

وينفتح الباب الثالث ، فيرى الراوي قوما وجوههم من خشب معروقة ، وعيونهم من حجر لا حياة فيها ، يقول له الملاك : وهؤلاء هم المنافقون إنهم كالخشب المسندة ، لا حياة فيهم ، وكل ما حولهم جامد وميت .

ويصل الملاك بالراوي إلى الدرك الأسفل من النار ،فيريه غرفة جميلة أبوابها من خشب معطر ، وفي داخلها الستائر والمكيفات والأثاث الثمين والسجاد الفاخر يقول الراوي للملاك بصوت عال : أتخدعني أيها الملاك ، إن هذه الجنة بعينها ، فيجيبه الملاك : انظر إلى هذا الرجل الذي ينام على السرير . نظر الراوي إليه ، ووجد رجلا أصفر اللون، يبدو عليه القلق والتوتر ، وعيونه تتحرك من جهة إلى أخرى ، أمعن الراوي النظر في الرجل فلمح في صدره نارا تغلي ، ورأى تحت الفراش عقارب وثعابين تلدغه، فيتقلب الرجل ويتلوى كأنه فوق جمر الغضا . قال الملاك للرجل في ثقة : وهذا هو الحسود ، عنده نعم كثيرة ولكنه لا ينعم بها ، انه ينظر إلى ما في يد غيره ، وهو اشد عذابا من الظالمين والكذابين ، وحتى نزيد من عذابه نعرض على شاشة أمامه صنوفا من الرجال الناجحين ، فيزداد توتره وآلامه .

إن هذه القصة تستوحي " رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري في رحلته نحو الجحيم ، وسرده لأصناف المعذبين ، ولكنها قصة قصيرة تعرف هدفها ـ فهي تتكون من أجزاء ، تمهد كلها للجزء الأخير ، الذي يحتوي على عبرة مفادها : إن الحسود لا يسود ، كما يدل على ذلك عنوان القصة.

والشكل الشعبي هو الذي يستوحي مادته الأولى من التراث الشعبي ، مثل السير الشعبية والأمثلة والحواديت والأغاني ، وغير ذلك مما كتب باللهجة العامية .

إن قصة " الهتهات مات مات" هي خير مثال على ذلك الشكل ، إنها تنبني على حدوتة شعبية قصيرة مؤداها أن نسرا ظالما كان يعتدي على الطيور ويلتهم واحدة منها كل صباح . فأراد الهدهد الحكيم أن يتخلص منه، وذهب إلى النسر وطلب الأمان ، وقال له إن الطيور سوف ترسل لك طائرا كبيرا يلتهمك يسمى الهتهات فخذ حذرك ، لأني لا أعرف متى يأتي ، ولا من أي جهة يلتهمك ، ولكن انتظره في أي وقت ، قلق النسر وأصابه الضعف حتى أشرف على الموت ، وفي يوم سأل الهدهد بصوت ضعيف متى يأتي الهتهات ، قال له الهدهد في سخرية : وهل هناك هتهات أكبر مما أنت فيه .

هذه هي الحدوتة الشعبية ولكن الراوي يحولها إلى قصة جميلة تحكيها الجدة له ، وقد بدا من الفقرة الأخيرة من باب التشويق ، وأتم الراوي بقية القصة على لسان جدته ، التي استغلت هذه الحكاية في تخليص حفيدها من حالة الاكتئاب ، التي مر بتا بعد موت صديقه الصغير ، وبسبب حكمة الجدة تخلص الصغير من عذابه ، وخرج إلى الطريق يلعب مع أصدقائه وينشدون :

الهتهات مات مات   وفي ذيله سبعة لفات
والعصفورة جات جات   وفي ذيلها عسل شربات

إن هذه القصة تنبني على حدوتة شعبية ، وتحاول أن تتخذ لغة أقرب إلى السير الشعبية مثل : وعم المملكة الفرح والسرور والأمن والسلام، وعاش الناس في تبات ونبات ، ثم قالت بصوت خافت وحنون جاءني صديقك بالأمس في المنام

، واخبرني بأنه في الجنة ، وهو سعيد يلعب مع الملائكة الصغار وهو يرجوك أن تخرج من الحجرة ، وان تلعب مع أخيه الصغير ومع بقية الأطفال في الحارة ، وان تعيشوا سعداء حتى تلحقوا به ، وتلعبوا سويا مع الملائكة الصغار ، وغير ذلك من أمثلة كتبت بالفصحى الميسرة ، حتى تتناسب مع هذه الحدوتة الشعبية ، ومع نفسية الأطفال أبطال هذه القصة .

أما النكتة المصرية ، فهي منجم زاخر ، يغرف منه الأدباء والرسامون، لأنها نكتة ذات لمحة قصيرة ودالة ، تفصح عن ذكاء فطري نادر . وخير مثال على ذلك قصة " الديك الذي باض " فإنها تقوم على نكتة قصيرة تفيد بأن رجلا كان يملك حظيرة دجاج ، واكتشف ذات يوم أن الدجاج لا تبيض ، فلوح بعصاه أمامها واقسم لئن لم تبض الواحدة منكن خمس بيضات صباح اليوم التالي ليذبحنها ، وجاء صباح اليوم التالي ، ووجد أن الدجاجات قد باضت كل واحدة منها خمس بيضات ما عدا واحدة قد باضت ثلاثا ، ولما سألها قالت له بصوت خاشع : استر علي ، إنا أصلي ديك .

تقف النكتة المصرية عند هذا الحد ، ولكن المؤلف يقيم منها قصة ذات إسقاطات معاصرة ، ويسندها إلى ملك ظالم ، ويديرها في حوار بين المعلم وتلاميذه .

تبدأ القصة والمعلم يقرؤها في كتاب عن ملك مستبد ، ولما انتهى منها رفع تلميذ يده وقال : إن أبي قد ذكر لي بقية الحكاية ، وهي أن الملك أخذ يلوح بعصاه أمام الدجاج والديوك ، فباض الجميع ، وامتلأت الشوارع بالبيض ، وأصبح الناس يمشون فوق البيض ولا يكسرونه ، خشية عصا الملك التي يلوح بتا أمامهم .

رفع تلميذ ثان وقال : أليس في المدينة ديوك أخر ، أجابه التلميذ الأول ، إن كل الديوك قد باضت ، ولم يصبح في المملكة إلا ديك واحد .

إن النكتة المصرية هي سلاح ، ينفث فيها الشعب المقهور عن ظلمه ، ولكنها ذات أثر سلبي ، فالبطل فيها لا يقوم برد فعل ايجابي ، حتى ولو كان هذا الفعل على الهواء أو على الورق الأبيض . ولكن قصة " الديك الذي باض" ، تنتهي نهاية ايجابية ، فقد كان في الفصل تلميذ لم يشارك في الحديث، ولكنه قال في نفسه : غدا سأشتري سكينا غدا سأذبح الملك ، غدا سأطهر المملكة من البيض ، غدا سأجعل الناس يسيرون في الشوارع دون أن يتزحلقوا ، عند هذا الحد تسللت أشعة الشمس إلى الفصل ، فأحس الطلاب بالنشاط والخفة ، وابتسموا للمستقبل الموعود .

الخاتمة :

إن اهتمامي بالشكل الأصيل لا يعني أبدا رفض بقية الأشكال الأدبية . فان هذا الرافض مخالف لطبيعة الأدب ، الذي يقوم على الحرية والاختيار ، وعلى مبدأ أن المضمون يخلق شكله ، ولكن اهتمامي بهذا الشكل الأصيل مبعثه أن لم يلاق حظه من الانتشار ، فهو لا يزال يدور بين أفراد قليلة ، ولم يتحول بعد إلى ظاهرة . لا يزال المبدعون يقتربون منه على خشية ، ولم يقاربوه بوعي وإدراك . ولا يزال النقاد يتجاهلونه ، ولما يكتشفوا بعد مصطلحاته الخاصة .

إن الوعي بالشكل الأصيل بالطريقة التي شرحناها ، يجعلنا نحاول أن نقوم خريطة جديدة ، لدراسة تاريخ الفن القصصي في مصر والعالم العربي ، وهي خريطة تختلف كثيرا عما هو سائد في دراساتنا التقليدية .

فقد اعتدنا أن ندرس الفن القصصي ، وكأنه لم يوجد إلا بعد اتصالنا بالحضارة الأوروبية في أوائل القرن العشرين ، أما ما قبل ذلك من قرون ، فقد دخلت في مرحلة الظلام ، ولم يشملها الفجر الجديد ، أو البعث الجديد ، أو نور الحضارة الأوروبية . وكل هذا جعل مرحلة الحضارة الأوروبية تتضخم وتبتلع ما عداها .

أما الخارطة الجديدة فإنها تدرس الفن القصصي في مرحلة ما قبل الحملة الفرنسية ، أو بالتحديد في مرحلة عصر المماليك . فقد تجمد الأدب بأجناسه المختلفة في تلك المرحلة ، وتحول إلى كلام مرصوص ، والمبدع في تلك المرحلة يردد كلاما لا يعبر عن وجدانه الخاص ، إن فعاليته غير ملموسة ، انه واقع تحت ما يسمى بالاستلاب التراثي ، بمعنى أن التراث يضغط عليه ، ويفقده وعيه ، وهذا هو

التطرف الأول ، أما التطرف الثاني فيتمثل في أن الإنسان العربي ، قد انفتح تمام الانفتاح على الحضارة الأوروبية بعد العصر الممملوكي ، واستسلم لمنجزاتها ، وتقبل كل رطانتها ، ولم يناقشها في شئ ، مما جعله يصاب بالاستلاب التغريبي ، الذي أفقده وعيه ، وجعله لا يبدع من وجدانه ، واستجابة لظروفه التاريخية والاجتماعية . وبين الاستلاب التراثي والاستلاب التاريخي ، يبدأ الشكل الأصيل ليوقظ الوعي ، ويدفع المبدع ليتحاور مع التراث ومع الغرب ، حتى يصل إلى أنظومته الخاصة .

إن هذا التخبط الجديد ، لا يجعل مرحلة التغريب تتضخم ، وتبتلع كل ما عداها ، بل يضعها في قدرها ، ويجعلها حلقة داخل حلقات ثلاث في تطور القصة القصيرة في مصر والعالم العربي.

الفهرست

الموضوع **الصفحة**

نبذة ظهر الغلاف

ظهرت حتى الآن سبعة أجزاء من موسوعة الوسطية العربية ، تضافرت جميعها على تقديم صورة متكاملة لمذهب الوسطية العربية ، في ملامحها الفنية التي شكلها عطاء المكان ، ونقلها الإسلام إلى التاريخ والعالمية ، وفي تطورها التاريخي من البداية حتى العصر الحديث . وفي تطبيقاتها الأدبية والفكرية والفنية والسلوكية والمنهجية واللغوية ، وغير ذلك مما شكل حضارة إنسانية ذات خصوصية بارزة ، تحاورت مع الحضارات الأخرى أخذا وعطاء .

ويأتي هذا الجزء الثامن ، فيقدم نموذجا تطبيقيا للشكل الأصيل للقصة القصيرة ، يتمثل في مجموعة " يقول الراوي" ، حيث يختار المؤلف عددا من هذه القصص ، ويكشف عما بها من ملامح فنية أصيلة ، ويتعرف على مصطلحاتها الخاصة ، التي يقتبسها من البنية الفنية لهذه القصص ، وهي بنية ذات جذور تراثية ، تختلف عن البنية الفنية للشكل الأوروبي الوافد .

ارتفعت في الآونة الأخيرة نغمة الدعوة إلى الوسطية العربية الإسلامية ، ورددتها أجهزة الإعلام ، وجاهر بها علماء الدين فوق المنابر ، ونادى بها الباحثون في المؤتمرات والندوات ، وتأتي هذه الموسوعة فتحيل كل هذه العواطف الطيبة والنيات الحسنة إلى بناء علمي متناسق ، يقوم به أبناء مدرسة الوسطية في مصر ، في أجزاء كثيرة لا نعرف كم عددها ، لأنها مفتوحة على أبواب التاريخ ، تحاول باختلاف مناحيها ، أن تقبض على مذهب عربي حديث متكامل الأركان ، ويحمينا من استعارة المذاهب الأخرى ، التي لا تتفق مع تاريخنا وثقافتنا .